صاحبها ومحررها
سلامه موسى
المجلد السابع

المجلة الجديدة

العدد الثانى عشر
من
السنة السادسة

ديسمبر ١٩٣٧

سير الحوادث

ملحقان

يرى القراء مع هذا العدد ملحقين احدهما هو خطبة رئيس الوزارة فى يوم عيد الجهاد الوطنى . وهى تبين الاصلاحات التى قامت بها الوزارة منذ ان وليت الحكم . والملحق الثانى هو الخطبة التى القاها وزير المالية عن الاستثناءات فى تعيين الموظفين وهى التى حدثت فى عهد الوزارة القائمة والوزارات الماضية .

والخطبتان وثيقتان خطيرتان من المفيد لقراء هذه المجلة ان يحتفظوا بهما . وقد رأينا الا نطبعها فى صلب المجلة حتى لا نخرج بها عن شكلها ومنهجها . فان خطتنا الا نتوغل فى السياسة وانما نلم بها الماما موجزا كل شهر

وقد حدثت للاسف بعض القلاقل من بعض الطلبة فى اشهر الماضى دلت على انهم يجهلون التاريخ الحديث لمصر والجهاد العظيم الذى جاهدته الامة لتحقيق الدستور . واصبح اعداء الدستور زعماء فى نظر بعض هؤلاء الطلبة . وهاتان الخطبتان اللتان اشرنا اليهما يجدر بكل طالب ان يقرأهما ويدرسهما حتى يميز بين الصديق والعدو للوطن

نشاط المعارضين

وقد نشط المعارضون للوزارة فى الشهر الماضى نشاطا لايغبطون عليه . فانهم مع مايعلمون من الكثرة التى تؤيد الوزارة فى البرلمان تقدموا بعريضة الى صاحب الجلالة الملك يطالبون استقالة الوزارة اواقالتها . كما انهم حرضوا الطلبة على المشاغبات التى تدعوا بها للحملة على الوزارة لا نها لم تصن الامن . وقد ادى هذا التحريض الى الاعتداء على الرئيس الجليل . ودل هذا السلوك على نذالة لاحد لها . وليس هذا غريبا على زعماء كانوا فى ايامهم الماضية يؤيدون المستبدين ويضعون السلاسل على ابواب البرلمان ويضربون النواب والشيوخ

والذى نراه ازاء هذه الحركات وخاصة ازاء حركات الطلبة ان الوزارة الوفدية قد قصرت اكبر التقصير فى نشر الدعاية . ولانعنى الدعاية لها وان كانت قد تنتفع بها . وانما نعنى الدعاية للدستور والديمقراطية والحرية اى ايجاد «الايديولوجية» التى يحتاج اليها شبابنا . فكان يجب ان يكون فى البلاد كتب صغيرة وكبيرة تبين للجمهور ـ وخاصة للطلبة ـ تاريخ اسماعيل صدقى باشا فى هدم الدستور وتأييد الاستبداد والصراع العظيم بين قوات النور والحرية وقوات الظلام والاستبداد اوبكلمة اخرى نحتاج الى كتاب يصف الجهاد بين الامة وزعمائها وبين المستبدين منذ سنة ١٩٢٠ الى الآن . فيذكر فيه زيور باشا الذى جمع البرلمان فى الصباح وطرد اعضاءه فى المساء بالاشتراك مع اسماعيل صدقى باشا • ثم تاريخ محمد محمود حين عطل الدستور وضرب النواب بالعصى • ثم التاريخ الاسود تاريخ اسماعيل صدقى الذى اعاد الى البلاد حكم المماليك والشركس

ونحتاج الى كتب اخرى تبين معنى الديمقراطية والبرلمان والثورة الانجليزية والثورة الفرنسية والثورة الامريكية وما الى ذلك ما يمكن ان نعمم به «ايديولوجية» تسود اذهان الشبان فتبعدهم عن الحركات الرجعية التى تتخذ الوانا زاهية من الدين او النزاهة او الشرف وهى فى لبابها حركات استبدادية يراد منها فى النهاية احالة مصر الى عزبة كبيرة ينهبها المستبدون

وعندنا ان مثل هذه الكتب يجب ان تتفشى فلا يزيد ثمن الكتاب على قرش ولا تقل صفحاته عن مائتين • ويمكن تأليف نحو ثلاثين أو اربعين كتابا من هذا النوع لايجاد الثقافة العصرية

التى تهيء الامة للثورة حين يشب واثب مثل اسماعيل صدقى الى الحكم ويلغى الدستور ويقول لنا بالتقاليد التركية التى ورثها عن جده اننا يجب ان نقنع بالجلاليب الزرق وان نكف عن مطامعنا وان البرلمان بدعة اوربية لاتوافق المصريين

ازمة المزارعين

انحطت اثمان القطن انحطاطاعظيما جعل المزارعين يعانون ازمة لاتقل فى حدتها عن ازمة سنة ١٩٣٠ • ومتى عمت الازمة الريف انتقلت الى المدن لان القطن هو المحصول المهم الذى نعتمد عليه فى تادية الثمن لوارداتنا • ولهذا السبب تفشى الفقر فى المدن • والسائر فى شوارع القاهرة يجد مئات من الدكاكين المقفلة التى لاتجد من يستأجرها • وفى المحكمة المختلطة عدد كبير من قضايا الافلاس • والمزارع الذى كان لايبالى دينا قدره مائة جنيه قد اصبح يعد هذا المبلغ عبئا لايمكن التخلص منه

وقد اقترحنا فى العام الماضى خفض الجنيه الى نصف قيمته • واعدنا هذا الاقتراح هذا العام• ولكن الوزارة التى تخشى وساوس الاجانب وتحب ان يسمع عن نقدنا الاستقرار واثبات تكره هذا الاصلاح • ونحن لانشك فى ان فى الخفض رائحة كريهة • ولكن الخفض مع الضبط و المراقبة يعيد للريف رخاء يحتاج اليه اشد الحاجة هذه الايام • والاجانب انفسهم سينتفعون من هذا الرخاء ولسنا ندعى ان الخفض ترياق لكل داء فى الريف • ولكنه دواء لا بأس به يخفف اعباء الديون فينشط المزارعون الى الزراعة فتزيد المحصولات • كما ان الغلاء الذى سوف يعم الواردات الاجنبية سيجعلنا نعتمد على محصولاتنا ومنتجاتنا المصرية • وفى هذا تشجيع للجهد الاقتصادى الوطنى

معاش الشيخوخة

يقضى برنامج الوفد أن يكافح الفقر . وهذه المكافحة هى أشرف ما فى هذا البرنامج . ولكن الوزارة لاتزال مقصرة فى هذا الميدان . فان العطل فى المدن لم يعالج . والبؤس الذى يعانيه الفلاحون

الا جراء وخاصة فى الصعيد يدفعهم الى الاجرام . وقد تدخلت الحكومة لمصلحة المزارعين فى حرية الزراعة عشرات المرات ولكنها لم تتدخل مرة واحدة لمصلحة الفلاحين الاجراء . وفى المدن ملاجىء للعجزة ولكنها لاتفى بالغاية المنشودة منها

وعندنا أن مما يعالج به الفقر فى الوقت الحاضر معالجة سريعة الاثر ان تمنح الحكومة معاشاً لكل من يبلغ السبعين من العمر رجلا كان أم امرأة فى المدينة أو الريف . وحسبنا أن نبدأ بهذا المعاش بمبلغ متواضع لايزيد على خمسين قرشا فى الشهر . ولايكلف هذا المعاش خزانة الدولة اكثر من ٣٠٠ أو ٤٠٠ ألف جنيه فى العام كله . ثم هو سيغنينا عن الملاجىء أو عن معظمها كما أنه يعيد للشيخوخة حرمتها . ومثل هذا المعاش يمكن أن يكون بداية تتدرج منه الى زيادته مع منحه لمن هم أقل من السبعين

تعليم الكبار

يرى القارىء هنا صورة فصل فى مدرسة من مئات بل الوف المدارس التى تنشئها الولايات المتحدة لتعليم الكبار ولو كانت أعمارهم تزيد على الخمسين أو الستين . وهذا مجهود شريف يبين بعض نواحى البر السامى فى الحضارة الحديثة



الطلبة الشيوخ يتعلمون فى مدرسة فى نيويورك

فندق مصري

كانت صناعة الفنادق الى الآن من محتكرات الاجانب . حتى كنا عنـــدما ندعو الى تشجيع السياحة يقال لنا أنه لافائدة من هذا التشجيع لان السياحين ينزلون فى فنادق أجنبية وينفقون فيها

ولـكن الهمة التى عرفناها فى الزعيم الاقتصادى محمد طامت حرب باشا قد بعثته على تمصير هذه الصناعة. فقداشترى بنك مصر المبنى الـكبير الذى يقع جنوب ميدان الاوبرا بالقاهرة وهدمه . وعن قريب سيقيم مكانه فندقا مصريا يعيد الى مصر بعض المكاسب التى يجب أن تربحها من السياحين . ومن هذا الفندق سنتعلم انشاء الفنادق وادارتها . ورجال بنك مصر جديرون بالثناء العظيم لهذه الهمة

فى الخارج

١ ـ كانت الجيوش اليابانية منتصرة طول الشهر الماضى تـكتسح الجيوش الصينية أمامها . وهى أى القوات اليابانية تتجه الى الغرب والجنوب

٢ ـ لم يحدث تطور جديد فى الموقف الحربى فى اسبانيا بين الثـائرين وبين الحـكومة . ولـكن الموقف السياسى تغير قليلا لان الميل يتجـه فى أوربا نحو الاعتراف بحـكومة الثائر فرانـكو

٣ ـ كان قد عقـد مؤتمر فى بروكسل يراد منه ايجـاد طريقة للتسوية بين اليابان والصين . ولـكنه فشل

٤ ـ اعلن قيام حكومة فاشية فى برازيل والغى الدستور

وفاة رمسى مكدونالد

مات رمسى مكدونالد - وهو واحد من أولئك الاسكوتلانديين الذين لاينسى الانجليز أنهم يجيئون اليهم من اسكوتلانده لكى يحكموهم - فان اسكوتلانده صنو انجلترا فى دولة بريطانيا - وليس لها برلمان خاص بها لان برلمان لندن يمثل الاسكوتلانديين كما يمثل الانجليز - وان كان الاولون أقلية لايستطيعون أن يطبعوا البرلمان بطابعهم - ومن هنا نشوء الحركة الوطنية بينهم هذه الايام ورغبتهم فى ايجاد مجلس نيابى اسكوتلاندى

نشأ رمسى مكدونالد فقيرا - فنزح الى لندن حيث احترف التعليم - وما زال يدأب فى الدرس والاختلاط بالاحزاب السياسية وتفهم المذاهب الاقتصادية حتى انتهى الى الاشتراكية فاستقر عليها وعينه حزب العمال المستقل سكرتيرا فبقى فى هذا المنصب أكثر من عشرين سنة يقود فيها سفينة الاشتراكية المعتدلة فى بريطانيا

وكان رمسى مكدونالد شغوفا بالكتب - ولو لم تقض الاقدار عليه بأن يحترف السياسة لكان مؤلفا فى الاجتماع أو الادب - ومما يتنادر به أصدقاؤه انه كان ذات مرة ينتقل الى منزل جديد فوضع الحمالون أكداس الكتب فى غرفة دون أن ينتبهوا الى ثقلها فانهار السقف تحتها لوفرتها

وقد أوشك أن يفقد بصره فى أواخر سنيه لفرط ادمانه على الدرس - ولعل هذا الادمان هو السبب لاعتداله فانه كان بعيدا عن الغلو فى مذهبه الاشتراكى حتى أنه فسر عبارة «الثورة الاشتراكية» التى ترد كثيرا على ألسنة الخطباء والكتاب بأنه لايراد منها غير المعنى المجازى لا المعنى الحرفى - وهذا الاعتدال هو الصفة اللازمة للرجل المثقف الذى يمتد بصره الى أوسع دائرة من الاراء والافكار فان التعصب للفكرة أو العقيدة هو فى أغلب الاحيان برهان الجهل الذى يحصر صاحبه ويمنعه من رؤية الاراء والافكار الاخرى . ونقول «فى أغلب الاحيان» لاننا نعتقد أن هناك أراء نحتاج

للدفاع عنها الى روح التعصب . وقد وجد رمسى مكدونالد نفسه فى هذه الحال مدة الحرب الكبرى فانه على الرغم من اعتداله عارض حكومته فى هذه الحرب . وبقى طول مدة القتال وهو يدعو الى السلم . وقد قاطعه مواطنوه فاسقطوه فى الانتخابات ولكنه أصر على دعوة السلم

ويحكى عن لنين داهية الشيوعية الروسية انه قال ذات مرة فى حديث مع أحد الصحفيين الانجليز «ان الثورة الاشتراكية سوف تقع فى انجلترا وسوف تنجح أيضاً الا اذا وقف لها واحد من المعتدلين عندكم مثل رمسى مكدونالد . فانها عندئذ تفشل»

وكأن لنين كان يقرأ الغيب فى هذه العبارة . ففى سنة ١٩٢٩ كان مكدونالد رئيس وزارة للعمال وكان يعلن للعالم أنه اشتراكى وان كان فى الجناح الايمن من الاشتراكيين الانجليز . وكانت الاشتراكية مذهبا محبوباً فى ذلك الوقت ولم يكن على الحزب السائد الا أن يسير فى تنفيذ برنامجها



رمزى مكدونالد باليمين وفيليب سنودن بالوسط

على نحو مافعل ليون بلوم فى فرنسا . ولكن مكدونالد لم يتأخر عن تحقيق نبوة لنين عنه . اذ أنه فى الساعة التى كان الرأى العـــام الانجليزى يطلب فيها الاشتراكية انحرف مكدونالد وألف وزارة قومية بلا سبب معقول . وكان هذا الانحراف صدمة قوية لم تنتعش منها الاشتراكية فى بريطانيا الى الآن

فاذا كان الاعتدال نتيجة الثقافة والدراية الواسعة والخبرة العامة فاننا يجب أن نؤدى ثمن كل ذلك بالبطء فى تنفيذ البرامج الاصلاحية . وقد يرى بعضنا هذا خيرا

ولمكدونالد مؤلفات فى الاشتراكية المعتدلة . وقد ترجم حسنى العرابى واحدا منها الى العربية ولكنه ليس أفضلها ولا أحدثها . بل مؤلفات مكدونالد جميعها يمكن اهمالها ازاء التطور الدراسى الحديث فى هذا المذهب

وقد كان فى مكدونالد رجولة تبدو فى المواقف العصيبة . كما رأينا فى موقفه مدة الحرب الكبرى حين قاطع أمته أو كاد . وقد عاش ديمقراطيا لايعرف الترف بل لعله كان يخافه . فانه رفض أن يكون لوردا . وهذه ابنته اشيل قد افتتحت فندقا وهى تديره بنفسها

ولا نستطيع أن نقول أنه خدمنا فى القضية المصرية . فانه كان يلوم الاحرار والمحافظين على تلكؤهم فى تسوية الخلاف بيننا وبين الانجليز . وكنا نعتقـــد أن اشتراكيته سوف تجعل هذه التسوية عاجلة وميسورة . ولكنه لهذا الاعتدال الذى أشرنا اليه والذى جعله بعد ذلك يؤلف وزارة قومية ويترك مذهبه الاشتراكى انحرف الى ناحية الاستعماريين ورفض التسوية عند آخر لحظة

على اننا نذكر له شيئا يستحق عليه الرحمة بعد وفاته . ذلك انه عندما وثب اسماعيل صدقى باشا الى الحكم وقف مكدونالد فى مجلس النواب وصرح بصوت عال بأنه لايمكن أن تجرى مفاوضات بين الحكومة البريطانية وبين وزارة تطبخ الانتخابات وكان هـــذا الطابخ المقصود هو من يدعى اسماعيل صدقى باشا

ولكن صدقى باشا والذين كانوا يسندونه ويدفعونه الى الغاء الدستور لم يخجلوا وطبخت الانتخابات وبلغت نتائجها ٦٧ وسبعة أثمان من الفوز للصدقيين .

التراجمة والسياح

فى مصر واوربا

بقلم الدكتور امير بقطر

لست أعرف بين الطوائف المصرية ، من هو « أبرز » شخصية ، وأشد مغنطيسية وأكثر أثرا فى التاريخ الاجنبي من طائفة التراجمة . وكلما حاولت تحليل العناصر التى تتكون منها هذه الشخصية الغريبة ، وأردت أن أتفهم سرها العميق ، زدت حيرة على حيرتى ، ودهشة على دهشتى

الادلاء فى أوربا افراد عاديون ، لا يتميزون من سواهم فى شىء سوى الرطانة ببعض اللغات الاجنبية ، والالمام بشىء من جغرافية الاقليم ، وتاريخه ، وآثاره ، ودوره ، ومنشآته وارشاد السائح الاجنبي اليها ، والتنويه له بمحاسنها أو مساوئها . وليس للدليل غير ذلك من جاذبية ، أو لباس ، أو شخصية ، تترك فى ذهن السائح أثرا من اثاره ، بعد انتهاء المهمة التى كلف القيام بها

والتراجمة فى الاصل أدلاء ، لا أكثر ولا أقل . وكان من المنتظر ان يكونوا كأمثالهم فى أوربا : لا يميزهم عن سواهم غير المهنة التى يزاولونها ، كما تميز سائر المهن اصحابها عن سواهم . غير أن الواقع لا يؤثر فى ذلك .فالتراجمة المصريون،فى لباسهم الفضفاض ، وألوانهم الزاهية ، وهندامهم المتقن ، وزيهم غير المألوف ، تتجسم فيهم شخصية نادرة ، لا تمت بصلة لشخصية الادلاء ، وتسكن أجسامهم روح غير روح زملائهم فى أوربا ويرفرف حولهم ملك الوحى الذى يعتقد الغربيون أن الشرق لا يزال مهبطه الوحيد ، وتحوم حولهم أجنحة متكسرة من بديع الخيال الذى يتصل بأقاصيص موروثة عن الهرم والصحراء وأبى الهول . وصفوة القول ان التراجمة المصريين، قد حبك

التاريخ من شخصياتهم أروع القصص ، وصاغ من قصصهم ما يزرى بخطابات الف ليلة وليلة ، ومن أمثالهم ما تلهج بذكره الركبان .

يهبط السائح الغربى بلاد الفراعنة لاول مرة ، وصور الشرق ، وأحلامه ، ورواياته وسائر الاشباح الذهنية ، ترتسم فى مخيلته ، وتمثل أمام عينيه ، كصور قديمة منسية ، كان قد شاهدها فى شريط سينمائى عتيق بال ، فى زمن كانت فيه « السينما » حديثة العهد، مضطربة الاشباح. وقد يكون قدومه ليلا ، فيقضى ساعات النوم فى فندق سميراميس فى أحلام وخيالات ، لاتقل ذبولا واضطرابا من الصور الذهنية ، والروايات الغرامية ، والمعجزات السحرية التى قرأ عنها فيما كتب الكتاب عن الشرق من الصور والروايات والمعجزات .

ومايكاد يغفو قبيل الفجر ، بعد أن تطوى صفحة الاحلام ، وتغيب أشباحها ، حتى يهب من رقاده ، والكرى لا يزال فى معاقد جفنيه ، واذا بالصبح يسفر عن يوم مشرق الديباجة ، واذا بالنيل وما وراءه من تاريخ تليد ، يشق الوادى، وهو لا يزال منهلا عذبا سائغا للواردين، واذا بشجيرات النخيل الباسقات ، تذهب فى جوف الفضاء على الضفة الاخرى ، ممايلة سيقانها الدقيقة ، متعانقة تيجانها الخضراء ، وكأنها والنسيم يداعبها وأشعة الشمس تترقرق بين أغصانها ، قطعة من جنان الفردوس

بهذه الصور والاشباح ، وفى هذا الجو الجديد الغريب ، وتحت هذا الاديم الصافى ، تتجسم الخيالات فى ذهن السائح الذى يهبط بلاد الفراعنة لأول مرة فى حياته ، ويهجر وطنه لأول مرة وبهذه الخيالات يشرع فى مشاهدة مصر ، القديمة والحديثة ، معتمداً على الدليل فى كل شىء ، حتى ينسى أحيانا ان له عيونا تبصر ، وآذانا تسمع ، وعقلا يفكر ، وكأن الدليل عنده بمثابة العين والاذن والعقل .

ونحن لا نتكلم هنا عن السائح المتزن ، أو المثقف، الذى يكون منزلته من الدليل منزلة القاضى الحكيم العادل من الشهود ، يتخذ أقوالهم حجة ، أو ذلك السائح الذى درس تاريخ مصر القديم وحالها الاجتماعى الحديث أو ذلك الذى يقرأ الكتب ويدقق فى تصفح الخرائط والرسوم قبل

الاقدام على رحلة من الرحلات . ان هؤلاء ليسوا كثيرين كما يتوهم البعض . انما نتحدث هنا عن ذلك المحدث «الغنى الجديد» الذى لم يزحزحه من بلاده ولم يلق به الى هذا البلد الاجنبى الا الحظ والصدفة والمال الذى آل اليـه من حيث لا يعلم . وانما نتحدث هنـا عن الشاب الغربى الطائش الذى لم يقدم على زيارة هذا البلد الا ليقضى ليلة مقمرة فى الصحراء ورمالها الذهبية اللون ، على مقربة من الهرم الاكبر ، ينسى فيها المدينة وقيودها ، ونواميس الاخلاق وصرامتها ، والتقاليد الاجتماعية والحدود الدينية وحرمتها . وانما نتحدث هنا عن تلك الفتـاة المستهترة التى لم تقرأ كتابا فى حياتها وأستاذته ، الاالف ليلة وليلة وأمثاله ، ولم تهبـط الى أرض مصر الا لتقضى ليلة من هذه الليالى التى كانت تحلم بها مدة أن أحست بطبيعتهـا الجنسية الثائرة . وانما نتحدث أخيرا عن تلك العجوز الشمطاء الفاجرة التى تناست جـلال الشيخوخة ، وكرامـة الشعور البيضـاء تتوج رأسها وعقدت النية على الانتقام من ماض عفيف ، رزين طاهر ، والعيش « ولو بضعة أيام » فى حاضر خبيث فاجر .

ذكر لى أجنبى فاضل من الذين عاشوا فى مصر طويلا أنه سمع دليلا يسرد الاكاذيب تليها الاكاذيب لشابة سائحة أجنبية ، وكانت المائدة التى تجلس عليها فى شرفة شبرد بجانب مائدتها ، فضاق ذرعا ولم تطعه آذانه أن تسمع أكثر مما سمعت ، فالتفت الى السائحة الساذجة وقال لها فى عزم وشىء من الشدة : لاتصدقى شيئا مما قاله لك هذا الدليل أيتها الآنسة . فقالت . ولكن أليست عيناه جميلتين ؟ ؟ ؟

ومن أبدع ما سمعت حادث جرى لاحد كبار علماء الآثار ، وهو امريكى ولعله الدكتور ريزنر كان فى معبد الكرنك بالاقصر مرة ، وكان الدليل يتدفق «دلسيل وهو يترجم الى الانجليزية ارتجالا لوحة هيروغليفية لسيدة أجنبية ولما أن أتى على آخر عبارة نظر العالم الى السيدة وقال لها ان الترجمة على بلاغتها لا تتفق والاصل فى شىء على الاطلاق وليس فى هـذه اللوحة حرف واحد مما قاله لك الدليل . فغضبت السيدة وخاطبت العالم بشدة وغيظ . وأنت ماذا تعرف عن هذه اللغة الهيروغليفية وكيف تجرؤ أن تكذب هذا الرجل ؟ أليست هذه اللغة التى ينطق بها لغة أبيه وأمه وأجداده ؟

وهـذا النوع من السياح يصادفه المرء فى كل مكان ، والادلاء فى أوربا

لايفوتهم التهكم أحياناً إذا ما أنسوا فى الجماعة «أو الفرد» التى يقودونها الجهل والبساطة. مثال ذلك ماحدث مرة فى باريس فبينما كان الدليل يتحدث عن بناء الأوبرا وإذا به يقول مستهزئاً : أراكم تدهشون لكبر هذا البناء واتساعه، ولكنكم ستزدادون دهشة إذا علمتم أنه من الداخل اكثر اتساعاً منه فى الخارج.

فأجابت احدى السائحات. هذا ما كنت اتوقعه تماماً

وكثيراً مايكون الأدلاء فى اوربا على شيء من العلم والثقافة ليس بقليل ، فيذكرون للسياح احصاءات وأرقاماً ، ويجددون معلوماتهم عنها كلما ظهرت بيانات حديثة عنها ، ويبدون اراءهم الخاصة بأسلوب يدل على التفكير والمنطق والفلسفة. وأذكر هذا العام انى كنت أشاهد مع جماعة من السياح إحدى الكنائس «سنت فرارى» فى مدينة البندقية فى ايطاليا ، فمنع الكاهن سيدة عجوزاً من الدخول لأنها كانت ترتدى حذاء بغير جوارب. فاغتاظ اصدقاؤها لهذا التعسف بغير مسوغ وقالوا إن سن هذه المسكينة كان ينبغى أن يكون شفيعا لها. وأراد الدليل أن يعطف على جماعة السياح الذين كانوا معه فخاطبهم نحو دقيقتين فى موضوع يكاد يكون فلسفياً تكلم فيه عن التناقض الظاهر فى نواميس الاخلاق والتفريق بين اللائق وغير اللائق فى العالم ، واراد أن يضرب مثلا واقعيا مناسبا لمقتضى الحال ، فأخذ الجماعة الى زاوية فى هذه الكنيسة وأشار الى تمثالين من المرمر عاريين ، بدت منهما اعضاء التناسل ظاهرة للعيان وقال : أيهما أدعى للتحريم وأشد إثارة للشهوات فى مكان مقدس معد للعبادة ، عجوز أهملت جواربها لحرارة الطقس ، أم تمثال جميل على هذا النحو الذى وصفناه ؟ ثم اردف ذلك بهذه الاسئلة : الا تدخل الفتاة القروية الكنيسة أحياناً عارية الساق ؟ الم يكن الكثيرون من القديسين حفاة الأقدام ، ومتى كانت الأقدام العارية مثيرة للشهوات ؟ فخيل الى ان الدليل استاذ فى الفلسفة الحديثة او علم الاجتماع

وحدث هذا العام أيضا ان الدليل فى احد متاحف السلاح كان يشير الى « حزام العفة » وما يحوط به من الاسلاك الشائكة المدببة ، وكانت الجماعة التى يقودها مكونة من نحو خمسين سيدة ونفر قليل من الرجال. فسألت إحداهن الدليل فى صراحة تامة إذا كانت أحزمة العفة هذه وافية بالمرام فى ذلك الزمن. فاستأذن الدليل السيدات فى سرد حكاية تاريخية معروفة أجابة عن هذا السؤال.

فأذن له فقال

ذهب أحد حكام البندقية مرة وكبار قوادها على رأس جيش لمحاربة النمسا ـ وجريا على المعتاد أوصد حزام العفة جيداً وحرص على ان يكون مفتاحه معه فى مكان أمين ، خصوصاً وان امرأته كانت آية فى الحسن والجمال وكن شديد الغيرة عليها ـ ولما ان عاد بعد سنوات يحمل أكاليل النصر استقبله الشعب استقبالا لم يسبق له مثيل ، وكانت نشوة الفوز والعظمة تكسوه جمالا وجلالا ـ بيد أنه ما كاد يعتكف الى غرفته الخاصة ليلا ، حتى لمحت عليه امرأته الجميلة ، امارات الحزن والاستياء ، وكانت قد تزينت للقائه ، وارتدت أفخر الملابس وأبدعها ـ فسألته عن سبب وجومه فقال لها : لقد أضعت مفتاح الحزام ، ولا سبيل الى فتحه لأن قفله منيع ، واشواكه قدت من أجود الفولاذ فاطرقت الزوجة قليلا ثم طيبت خاطره والابتسامة تحار بين شفتيها ويداها تطوقان عنقه وقالت: هون عليك ياحبيبي فانني كنت طيلة هذه السنوات احتفظ لدى بمفتاح آخر ... وكن الدليل يسرد هذه القصة التاريخية بكل تحفظ وسياسة وحياء واتزان ، ولم يكد يأتى على آخرها حتى دوت قاعة السلاح بالتصفيق

* * *

ونعود الى الدليل المصرى فنقول أنه ارقى اليوم عما كن من سنوات ، ولو كانت سوق السياح رائجة كما هى فى أوربا اليوم ، لكانت ثقافته اضعاف مما هى عليه . ولسنا نمانع فى أن يبقى زى التراجمة المصريين بالوانه الزاهية وتأثيره النفسانى كما هو ، بيد أننا نريد ان تكون هذه الطائفة أكثر ثقافة وأغزر علما ، وأمتن خلقاً ولولا ضيق الزمن لعقبنا على هذا البحث بكلمة اسيفة رثينا فيها لمواسم السياح المصرية التى كدت أن تمحى صفحاتها من الوجود ، فى الحين الذى فيه تروج أسواقها ، وتربح تجاراتها ، وتتضاعف ارقامها ، فى كل بلد من بلدان أوربا تقريباً . ان عدد الاميركيين وحدهم الذين يزورون باريس صيفاً لايكاد يصدق ، إذ أنه يزيد عن نصف المليون . وهذه مدينة البندقية وسكانها ٢٣٠ الف فقط يبيت فى فنادقها فى موسم السياحة «من ابريل الى نوفمبر» فى المتوسط كل ليلة ٢٥٠ الف أى أكثر من عدد سكانها . وقد اضطرت البلدية فى اغسطس أن ترجع خمسين الف سائح كل ليلة «عدة مرات» للمبيت خارج المدينة فى القرى والبلدان المجاورة لعدم وجود

الأماكن الكافية فيها . وما يقال فى باريس والبندقية يقال فى سائر العواصم وامهات المدن

ولسنا مبالغين او مخطئين اذا قلنا أن أسباب الفشل فى هـذه الصناعة المصرية — السياحة — دون غيرها من الامم ترجع الى «اولا» اللصوصية فى الفنادق وعـدم توافرها لجميع طبقات السياح «وثانيا» موسم الاضطرابات والمظاهرات الذى يستهل به كل عام موسم السياح «وثالثاً» السمعة السيئة التى اشتهر بها الدليل المصرى فيما يتعلق بالمعرفة اولا والاجرة ثانيا والخلق ثالثا ، وإن كان لا يفوتنا ان بين هذه الطائفة عـدد من الذين قـد اتصفوا بدماثة الخلـق والامانة والاخلاص

قال لى أحد كبار السياح الاميركيين مرة أنه اذا أتيح له أن يزور بلدا واحدا فى العالم كلـه لاغير فانه لن يختار سوى مصر ، وإذا قيل له ان يختار بعد ذلك بلدا واحدا لاغـير فى اوربا فان لا يختار الا ايطاليا . ويتفق وهذا الرأى معظم السياح الذين شاهدوا العالم كله ودرسوا معالم مدنه واحواله . أفلا يجدر بالقائمين بالأمر إذن أن يعملوا على إزالة الاسباب التى تنفر السياح من هذه البلاد الغنية بآثارها ومظاهرها التاريخيـة الخالدة ، وتوفير أسباب الراحـة لقوم يدرون على الالوف من المصريين بالربح الوفير والخير العميم ، فضلا عن الدعاية الحسنة لمصر والمصريين ؟

امير بقطر

الزيادة الحتمية فى النسل واسبابها

للاستاذ نظمى شحاته

موضوع السكان والنسل فى مصر أثار اهتماما خاصاً فى كثير من الدوائر الطبية والاجتماعية فى السنوات القليلة الماضية ، وبذلك نال هذا الموضوع الحيوى بعض ما يستحقه من العناية وهو جدير بالاهتمام لخطورته ، فهو موضوع الحياة وهل هناك ما هو أثمن من الحياة أو أولى منها بالعناية والدرس؟

وكان من الطبيعى أن نجد بين الباحثين من يرى أن نمو السكان فى مصر أسرع مما تسمح به مرافق البلاد وتقدمها وعلى ذلك يدعو الى تنظيم النسل وتحديده ، وأن نجد منهم ايضا من يعارض هذه الفكرة أشد المعارضة ، ومنهم أيضا من يحبذها ويعارضها فى وقت واحد ارضاء لدعاة التحديد ، وارضاءا لدعاة التكثير ايضا !

ولكنهم جميعا على كل حال متفقون على أن هناك مشكلة قائمة وهى أن نسل طبقات الموهوبين والمحظوظين ضئيل جدا بالنسبة الى نسل عامة الشعب والفقراء والمنحطين ، وانى فى هذه الكلمة لا أعالج من موضوع النسل إلا ناحية خاصة بالبحث فى الاسباب القائمة فعلا والتى تدفع العائلات الى ان تكثر من نسلها أو على الأقل لا تحاول تحديده رغم رغبتها فى تجنب زيادته مع التنويه بلزوم تعرف العائلات لوسائل منع الحمل السليمة لاستخدامها اذا لزم الحال ذلك .

ومن الحالات التى سأذكرها ما يصادف الكثير من الناس ومحاولتى هنا التعليق عليها فى اختصار .

١ — خشية العقم

الامومة عاطفة طبيعية فكل امرأة غير شاذة ترغب فى أن يكون لها طفل أو أطفال وهى تسعد

بأن تكون أما وتشقى الى حد كبير ان كانت عاقراً لسوء حظها .

والزوجة الجاهلة لا تعرف عن اخطر شؤون الحياة وهى شؤون التناسل شيئا يذكر فهى على ذلك لا تتدخل فى ظروف الحمل مطلقاً . أما المتعلمة العارفة بالشؤون الاجتماعية والمسائل التناسلية فى مقدورها أن تعين الوقت المناسب الذى تحاول فيه أن يكون لها طفل ، والمعرفة شىء والتنفيذ شىء آخر أذ أن التنفيذ يخضع لظروف خاصة تحيط بالمرأة وتؤثر فيها تأثيرا قويا لا يدركه الناس وقد لا يدركه زوجها وشريكها فى الحياة . ومهما كانت درجة التعليم عند المرأة ، ومدى وقوفها على ظروفها الصحية والاقتصادية وما تتطلبه من وجوب تخير أوقات مناسبة للحمل فقد تقسو الظروف فتسلبها ارادتها وتدعوها الى الاسراع فى الحمل فى وقت يقول فيه عقلها بوجوب عدم محاولة ذلك . من هذه الظروف القاسية أن يكون للشابة المتزوجة حديثا قريبة أو صديقه عاقر لا تلد فخشية هذه الزوجة من أن تكون هى أيضا مصابة بالعقم ، أو تصورها لامكان أصابتها بمرض يجعلها عاقراً ، ومعرفتها حالة الشقاء التى عليها المحرومات من الأمومة تدفع الى تجنب محاولة منع الحمل ، وتحصل على الطفل الأول فى اقرب فرصة وهى شبه مكرهة وهى بذلك تنسى ما كانت تنطوى عليه وهى مخطوبة فى أن تجعل سنى زواجها الاولى سنى متعة وتدبير وبناء لمستقبل زاهر ، وتجنب للارهاق المادى والصحى

٢ — الطمع فى الحصول على طفل ذكر

فى المجتمع المصرى لا يزال تقدير الولد أرفع من تقدير البنت ولا تزال المرأة محرومة من كثير من حقوقها فهى لم تأخذ مكانها المحترم بعد ، وليس أدل على هذا من مظاهر الفرح والغبطة التى تعم الأهل والأقارب عند ما يعلمون ان مولود العائلة الجديد ذكر لا أنثى ! والنساء فى مصر قد تأثرن بهذا الوضع والفته . هـذا الوضع الذى سلب المرأة شخصيتها فرضيت دون أن تشعر أن تلغى أهم مظاهر الشخصية ألا وهو الاسم . فهى تحمل أسم ابيها شابة ، واسم زوجها وهى سيدة واسم ولدها « لا ابنتها الأكبر منه » وهى أم . وعلى ذلك فهى ترغب فى أن تكون ذريتها من الذكور وتتألم كثيرا اذا كانت كلها أناثا ، ففى كثير من الحالات عند ما يرزق الوالدان طفلا

انثى فان موقفها من منع الحمل يتغير فلا يزاولان وسائل منعه بل يتركانها فترة حتى يحدث حمل آخر يرجى منه أن ينتج ذكرا . فاذا كانت الذرية الاولى للعائلة من الاناث فان مثل هذه العائلة تستمر فى الاكثار من نسلها ولا تحاول تحديده ولو رزقت بعد ذلك بولد أو ولدين ، وما كانت هذه العائلة ترغب فى كثرة النسل . وما كانت ظروفها الصحية والمادية تسمح باكثاره ، ولكن نظرة المجتمع للمرأة هى التى تدفع الى هذه الزيادة غير المطلوبة .

٣ — الجهل بوسائل منع الحمل

كم من أم فقيرة هزيلة تود أن تعيش بقية أيامها على الارض متمتعة بحياة هادئة ومعاشرة زوجية هنيئة لا تصحبها مشاغل الحمل ومتاعب الوضع وتكاليف تربية الاطفال العديدين؟ كم من أم ترغب فى هذا كله بعد أن تكون قد قاست الأمرين من تعدد الولادات التى اضعفتها وهصرت قواها هصراً ، واذتها هى وزوجها فى السعى للحصول على القوت الضرورى لاطفالهما ؟

قد يخيل لبعض الناس أن الطبقات الفقيرة من الفلاحين والعمال لا يمر بذهنهم هذا الخاطر ولا تجيش فى نفوسهم رغبة منع الحمل لتخلص من الارهاق ، ولكنهم فى ذلك غير واقفين على ماجريات الحياة ، وانهم ليجدون الاجابة الصادقة عند المشتغلين بمسائل الاصلاح الاجتماعى ، وفى مراكز رعاية الطفل ، وقد صادفت كثيرا من هذه الحالات كما أن الناس جميعاً يعرفون أن الكثيرات من الامهات تحاولن الوصول الى بغيتهن من حيث منع الحمل بوسائل مؤذية ليست من الطب فى شىء ، والدافع الى كل هذا هو عدم اعلان وسائل منع الحمل الصحيحة ، الامر الذى يقصر معرفتها على الممتازين القادرين ومحجوبة عن العامة وهم المحتاجون اليها مما يدعوهم الى اتباع الوسائل غير الناجحة والمؤكدة الضرر .

فاذا كان المصلحون يشكون من كثرة نسل المنحطين فان اهمال العمل على نشر المعارف والوسائل الصحية بالاساليب الفنية الناجحة يعوق الاصلاح فيكثر النسل غير المرغوب فيه وفى الوقت نفسه يقل نسل الموهوبين قلة مزعجة تنبىء بمستقبل مظلم ينحط فيه مستوى المجتمع .

٤ م- الوسائل الطبية الحالية لمنع الحمل

فى شهر مايو سنة ١٩٣٧ قامت الجمعية الطبيـة المصرية بتنظيم سلسلة محاضرات للبحث فى تنظيم النسل فى القطر المصرى ونشرت كل الابحاث فى عدد خاص من مجلتها فى شهر يوليو، سنة ١٩٣٧ . وكان بين المحاضرين اعلام الطب الاختصـاصيين فى أمراض النساء والولادة وقـد شرح بعضهم شرحا كافيا الوسائل التى تتبع فى منع الحمل مع عمل مقارنات بينها جميعا وبيان افضلها فى نظره ، كما أن البعض الآخر اعترض اعتراضا حراً على منع الحمل ووسـائله وأسهب فى شرح اضرارها جميعاً ومع ذلك فقد ابدى هؤلاء المعترضون فى الرأى ما يؤكد وجوب منع الحمل فى حالات خاصة أمكنهم تعيينها . وعلى العموم فاتجاه البحث الذى سارت فيه الجمعية الطبية يتضح لمن يتتبعه بالدقة أنه يتضمن أقرارا لمبدأ وجوب نشر المعارف الخاصة بمنع الحمل واستخدام وسائله فى حالات معينة تتسع دائرتها وتضيق حسب وجهـات النظر المختلفة . فمن الباحثين من يرى وجوب مزاولتها فى عائلات الفقراء والمرضى والجهلاء ومنهم من يرى وجوب قصرها على الحـالات التى يـكون فيها الخطر على صحة الام مؤكدا والحالات التى يخشى فيها على النسل من نتائج الامراض الوراثية الخطيرة.

ومن هذا نرى ان هناك على كل حال وسائل ناجحة ،اضرارها لا تذكر اذا قورنت بنتائجها ولـكن بالرغم من هذا نجد ان المتعلمين الذين يعرفون قيمة الوسائل الطبية يهملون مزاولتها اهمالا تاماً وذلك بسبب ما تحتاجه هذه الوسائل من اتخاذ بعض الاجراءات وتحمل بعض المشـاق فى مزاولتها خصوصاً فى المرات الاولى حتى تصير مألوفة سهلة التنفيذ .

وصنف آخر من المتعلمين متوسطى الحال والفقراء يحرمون من مزاولتها لانها غالية الثمن نسبيا أو باحرى لانها ليست بالمجان . وعلى ذلك فنية هؤلاء الناس ورغبتهم فى منع الحمل صادقة ولـكن ما يعوقهم الآن هو عدم معاونة الطب لهم على مزاولتها . وقد اقترحت للتغلب على هـذه الصعوبة عدة اقتراحات اهمها العناية الخاصة بتعليم وسائل منع الحمل واجراءاته للاطباء والطبيبات وتقـديم

لارشادات اللازمة للعائلات فى مراكز خاصة أو فى مراكز رعاية الطفل وصرف الادوات اللازمة للجمهور بلا ثمن باعتبارها كالدواء الذى يعطى للمرضى المحتاجين ـــ وهى فعلا دواء الكثير من امراض الاجتماع الخطيرة

والأمل معقود على أن يتمكن العلم فى المستقبل القريب من اختراع وسائل اضمن وأيسر استخداما من الوسائل الحالية وبهذا يتجنب الناس الزيادة فى النسل التى تأتى اليهم وهم شبه مضطرين .

٥ — وجهة النظر الدينية

لأمور الدين سيطرة مباشرة أوغير مباشرة على كثير من الامور الجليلة الشأن وفى مقدمتها أمور الارزاق والأعمار فهذه الامور عند عامة الناس تكون محاطة بهالة تجعلها غامضة : ذات جلال ورهبة على كل حال . وهذا لاينشأ نتيجة لعامل معين بذاته أو كأثر لدروس دينية خاصة وانما ينتج عن مجموعة كبيرة من المعتقدات ومايتبعها من تصرفات اجتماعية منذ أيام الطفولة الأولى ، ولهذه المعتقدات قيمتها التى لاتنكر فى تربية الشعب وتقويم اخلاقه وتحسين سلوكه ولكنها تؤثر فينا تأثيرا خفيا لاتقوى تعاليم الشباب والرجولة على تعديله إلا عند بعض الناس دون سواهم . فمثلا قد يقتنع الفرد بسبب سوء حالته الصحية والمالية بوجوب تحديد نسله ولكنه يهمل هذا الأمر اهمالا تاما لا لعلة واضحة فى عقله ولكن متأثرا بوجهة نظره الدينية التى يقويها الناس من حوله . وهو كرجل مستنير أو كسيدة مستنيرة يحاول تبرير موقفه هذا بأن ينتخب من تعاليم الدين واقواله ما يؤيد تصرفه ضاربا الحائط بكل ماعداه ولو كانت البينة واضحة جلية لاتعمل فى تفسيرها .وفى الوقت نفسه مأخوذة من صميم الدين ، ويقول بها ائمة رجاله ولكنها لم تصل الى سمع امثاله فى ايام الطفولة والمراهقة بل عرفوا بها وهم رجال لايسهل عليهم تغيير موقفهم من الدين كما عرفوه

وقد دعانى الى التحدث فى هذا السبب «وكنت أود غض الطرف عنه» مالمسته من موقف الكثيرين من الفتوى الصريحة الصادرة من حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية بتاريخ ١٢ ذوالقعدة سنة ١٣٥٥ الموافق ٢٥ ينايرسنة ١٩٣٧ المسجله

برقم ٨١ مسلسلة جزء ٤٣ والتى تناولها حديث الجرائد والمجتمعات فترة ليست قصيره وهذا نصها : —

صورة من الفتوى الخاصه بمنع الحمل

سأل سائل ، قال ما قول فضيلتكم فيما يأتى :— رجل متزوج رزق بولد واحد ويخشى ان هو رزق أولادا كثيرين أن يقع فى حرج من عدم قدرته على تربية الأولاد والعناية بهم ، أو أن تسوء صحته لضعف اعصابه عن تحمل واجباتهم ومتاعبهم ؛ أو أن تسوء صحة زوجه لكثرة ما تحمل وتضع دون ان يمضى بين الحمل والحمل فترة تستريح فيها وتسترد قوتها . فهل له أو لزوجته أن تتخذ بعض الوسائل التى يشير بها الاطباء لتجنب كثرة النسل بحيث تطول الفترة بين الحمل والحمل فتستريح الأم ولا يرهق الوالد؟

أجاب : اطلعنا على هذا السؤال ونفيد بأن الذى يؤخذ من نصوص فقهاء الحنفية انه يجوز ان تتخذ بعض الوسائل لمنع الحمل على الوجه المبين فى السؤال كانزال الماء خارج محل المرأة أو وضع المرأة شيئا يسد فم رحمها ليمنع وصول ماء الرجل اليه .

وأصل المذهب أنه لا يجوز للرجل أن ينزل خارج الفرج إلا بأذن زوجته كما لا يجوز للمرأة أن تسد فم رحمها إلا باذن الزوج ولكن المتأخرين أجازوا للرجل ان ينزل خارج محل المرأة بدون اذنها ان خاف من الولد السوء لفساد الزمان . قال صاحب الفتح :

« فليعتبر مثله من الاعذار مسقطا لاذنها » والظاهر من عبارة «فليعتبر مثله من الاعذار مسقطا لاذنها» أن مثل خوف السوء من الولد لفساد الزمان ما كان مثل ذلك من الاعذار كأن يكون الرجل فى سفر بعيد ويخاف على الولد وقياسا على ما قالوه قال بعض المتأخرين أنه يجوز المرأة ان تسد فم رحمها بدون اذن الزوج اذا كن لها عذر فى ذلك . وجملة القول فى هذا انه يجوز لكل من الزوجين برضا الآخر ان يتخذ من الوسائل ما يمنع وصول الماء الى الرحم منعا للتوالد ويجوز على رأى متأخرى فقهاء الحنفيه لكل من الزوجين ان يتخذ من الوسائل ما يمنع وصول الماء الى الرحم بدون رضا الآخر اذا كان له عذر من الاعذار التى قدمناها أو مثلها .بقى الكلام فى انه

هل يجوز منع الحمل باسقاط الماء من الرحم بعد استقراره فيه وقبل نفخ الروح فى الحمل ؟ اختلف فقهاء الحنفية فى ذلك وظاهر كلامهم ترجيح القول بعدم جوازه الا بعذر كأن ينقطع لبن المرأة بعد ظهور الحمل وله ولد وليس لأبيه مايستأجر به الظئر ويخاف هلاك الولد . أما بعد نفخ الروح فى الحمل فلا يباح اسقاطه . وبما ذكرنا علم الجواب عن السؤال حيث كان الحال كما ذكر به . هذا ماظهر لنا والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

وبالرغم من اعلان هذه الفتوى واطلاع الناس عليها وفهمهم لما تتضمنه فان الكثيرين متأثرون بمعتقداتهم الدينية الخاصة لايبررون منع الحمل فى أية حالة مهما كانت الظروف .

وواضح أن الفتوى تبيح منع الحمل ، بل الاسقاط قبل نفخ الروح فى حالات تشمل عددا لا يستهان به من سكان مصر فى الوقت الحاضر ؛ فالفتوى بحق خدمة جليلة للمجتمع المصرى فلعله يعمل بها معدلا بذلك وجهة نظره الدينية فى مسائل الارزاق والاعمار حتى يتبعوا ما جاء بها فى يسر واطمئنان .

وعلى ذلك فهناك زيادة فى النسل تحتمها وجهة نظر الناس للدين .

٦ — انحطاط مستوى المعيشة
وتوافر المأكل دون سائر مطالب الحياة

هذا العامل من اقوى العوامل التى تسبب زيادة فى النسل تأتى اعتباطا وغصبا لاطوعا وتظهر قوة اثر هذا العامل فى القرى المصرية وبين صغار العمال .

فالطبقات الوضيعة التى ترضى بالحياة لأنها الحياة وكفى رغم خلو حياتهم من كل مايجعلها جديرة بهذا الاسم الذى يدل على سمو المسمى به .

هذه الطبقات تسعى فى حقول عملها كما تسعى السائمة فى مراعيها المجدبة ، أو تتردد أنفاسها بين جدران المعامل الحقيرة كماتتردد أنفاس أحط أنواع الحياة ، وتترك كما تترك الأدوات والآلات ، وليس لها من هموم أو مشاكل ؛ ولا يعدو تفكيرها وأملها حدود تجنب الجوع المميت لا حدود

الحصول على القدر الكافى لها من المأكل والملبس والمأوى وسائر مستلزمات الحياة ، وهى تعثر على مايسد رمقها على كل حال فعيش الذرة ، والجعضيض ، والملح ، وبقـايا السمك المملح ، وآثار الجبن المحفوظ ، والبصل وما على شاكلتها لاتزال فى متناول أيدى الساعين اليها ! فاذا امتلأت البطون بهذا الأكل «ان صح تسمية هذه الأشياء وحدها أكلا» نقول اذا امتلأت البطون وتخدرت الابدان سعت أصحابها الى اللهو بما عندهم من بعض العافية ، وأى لهو أرخص من مزاولة المعاشرة الزوجية دون التمتع بغير ذلك من مسرات الحياة ! فمستوى معيشتهم المنحطة التى قبلوها مخيرين أو مسيرين ! لاتجعلهم يعرفون لذة الاطلاع على الكتب والمجلات أو الاستماع الى المحاضرات أو القيام بالرحلات والتمتع بمشاهدة المسرحيات أو زيارة الاندية وأماكن الاجتماع الراقية . فليس أيسر اذن من النوم ملء الجفون واشباع الشهوة الجسمانية وبذلك تتاح الفرصة لحدوث اكبر عدد ممكن من مرات الحمل ، فلا عجب أن تزيد نسبة المواليد بين طبقات المنحطين ، وهى زيادة لم يفكروا فيها مطلقا كما أنهم لا يعرفون التفكير فى درء شرورها .

ولو ارتقت أحوال المعيشة ، وارتفع مستوى الحياة ، لوجد أمثـال هؤلاء القوم من ملذات الحياة مايقلل بطريق غير مباشر نسبة مواليدهم .

هذا والرغبة فى زيادة دخل العائلة وتقويتها ليست سببا فى السعى الى زيادة عدد أطفال العائلة ، بالزواج المبكر ، أو بتجنب مسببات تأخير الحمل فهذا أمر ليس له محل بين الأسباب التى ذكرناها لأنه لايعقل أن يجول بخاطر انسان أنه يسعى الى اكثار نسله ليطمع فى تشغيل أطفاله العديدين فى أقرب وقت والحصول على دخل كبير من ذلك ، أو يسعى الى ذلك لتقوية مركزالعائلة بين سائر العائلات . وانما ما يحدث هوأن تصاب العائلات الفقيرة بعدد كبير من الأطفال فتحاول بعد ذلك ادعاء القوة لنفسها ويخيل اليها أنها محسودة من سائر الناس وهى فى ذلك جد واهمة وقد تكون العائلات المحرومة من الذرية أسعد حالا ممن أصيبت بكثرة العيال مع الفقر .

وفى ذلك يقول القاضى مكردى من أشهر قضاة الانجليز «وقد توفى فى ابريل سنة ١٩٣٣»

« ان الشقاء الذى تجلبه كثرة الاطفال عند الفقراء لايعدله أى شقاء» وصدور مثل هذا القول بل هذا الحكم من قاض خبر الحياة وتداولت بين يديه شتى القضايا يجعل له قيمة خاصة

هذه هي أهم العوامل التي يمكن أن يقال فيها انها تكره الناس اكراها لارفق فيه على زيادة نسلهم والمصلح النزيه الخبير بشئون المجتمع لايقع باللائمة على اولئك النـاس الذين لم يتمكنوا من تدارك الزيادة فى النسل المؤذية فى معظم الحالات لأنه أعرف الناس بما يتطلبه المجتمع من شتى صنوف الاصلاح فى الأمور الاقتصادية ، والتعليمية ، والصحية ، وغيرها .

وأخيرا نختم مقالنا بكلمة قصيرة عن عقلية الاصلاح والتطور والرقى .

عقلية واحدة

المجتمع المتمدين كما جاء فى تقرير الخبير العالمى عند درسه لموضوع مكافحة البلهـارسيا والانكلستوما فى مصر هو المجتمع الذى تتلاشى فيه الأمراض الطفيلية ويمكنه مقـاومة الأمراض المعدية عند ظهورها ، وهذا التعريف صحيح من وجهة النظر الطبية .

ويمكن استعارة هذا التعريف لينطبق على الحالة التعليمية فنقول إن المجتمع المتمـدين هو الذى تنعدم فيه الامية ويسعى الى تعليم أفراده جميعا تعليما ممتازا . ومن وجهة النظرة الاقتصادية نقول إن المجتمع المتمدين هو الذى ينال أفراده القدر الكافى من ضروريات الحياة ويسعى لتوفير الخيرات لهم من ساعات كفية من الفراغ الى نصيب وافر من الطعام اللذيذ والمسكن المريح وغير ذلك مما يخفف من متاعب الناس . وتكون هذه التعاريف كلها لامغالاة فيها . وفعلا تسعى الامم الراقية لتصل الى الدرجة التى تجعل مجتمعها جديرا بأن يوصف بالتمدين . ولا تصادم أو تعارض بين هذه التعاريف كلها ومعنى هذا أنه لـكى يرقى مجتمع كالمجتمع المصرى حتى يصبح متمدينا فان وسائل الاصلاح يلزم أن تشمل جميع نواحيه اذ أن عقلية الاصلاح التى تطلب التقدم الصحى للشعب هى نفسهـا التى تطالب رقيه فى التعليم ، وتقدمه فى الثروة .

والذى يعنينا من هذا فى موضوعنا أن هـذه العقلية هى نفسها التى تدرك مزايا تنظيم النسل وتحديده بحيث يتناسب مع حالة العائلات والامم ، فالمجتمع المتمدين هو الذى يعرف كيف يسيطر على نسله خبيرا بشؤون السكان ودارسا لـكل تطور يطرأ عليها .

وما دام الامر كذلك فدعاة الاصلاح لايمكنهم اهمال هذه الناحية الاخيرة التى لاتقل خطراعن سائر النواحى والتى تسير معها جنبا الى جنب ولا يبعد أن يقال أن الوقت لم يحن بعد فى مصر لتعليم الناس وسائل منع الحمل لاننا أمة تموت فيها الاطفال ، فعندما نتغلب على أسباب وفيات الاطفال تمكننا بعد ذلك أن نحدد النسل . هذا لايتأتى مطلقا فمثل هذا الكلام يعرقل الاصلاح اذ المعقول أن نحاول القضاء على الأمراض الفتاكة وفى الوقت نفسه يتعلم أهل الجيل الحاضر والاجيال المقبلة المسائل التى تتصل بالنسل فهذا نفسه يعاون على تقليل نسبة وفيات الاطفال تدريجيا ؛ وكذلك يمكن من مزاولة منع الحمل اذا لزم الحال ذلك وبذلك نتمكن من السير بالمجتمع الى الحالة التى تزكيه حتى يوصف بالتمدين ، ونتجنب انحطاطه وتأخره وبذلك نخدم الانسانية أجل خدمة .م



الامتحان

قصة انجليزية تأليف ج . م . ورد

وترجمة نصيف ا. الهوري

مستر « يوليوس فيزلي ستيرن » ثرى امريكى يملك قصرا على شاطىء نهر سنت لورنس وعمارة فى الشارع الخامس من نيويورك ، حصنا فى ايطاليا . ولقد أغراه بعض صحبه أن يشيد منزلا جديدا وسط الربوع الساحرة فى جزيرة « لنج ايلند » غير انه رفض اذ عول على استخدام المال الزائد على حاجته فى تشجيع العلم . واختار مدينة « تارى تون » الواقعة على نهر الهدسون ليستخدم فيها هباته .

والآن وصل تقرير لمستر استيرن من مدير المدرسة العليا فى تارى تون ينبئه بأن ثلاثة من طلبة السنة النهائية فازوا بجائزته حيث قد تفوقوا على اقرانهم وحصلوا بالتساوى على ٨٨ فى المائة وهو الرقم القياسى المقرر المنافسة . وهنا كتب مستر استيرن رسالة للمدير اظهر فيها رغبته فى الحضور فى العام القادم ليرى الطلبة الفائزين بنفسه ، ثم ارفق ٤٠٠ ريال يعطى نصفها للفائزين هذا العام والنصف الآخر للثلاثة الذين يقدر لهم الفوز فى العام القادم .

وفى السنة التالية حضر مستر ستيرن وكان ذلك فى يوليو ١٩٢٠ فقدم اليه مدير المدرسة ، الطلبة الثلاثة الفائزين بالجائزة وهم مستر دالى ومستر هملت ومستر بروكفيلد . فهنأهم ذلك الثرى بتفوقهم ودعاهم ليتناولوا الطعام معه فى المساء . وفى مجرى حديثه معهم ادرك ان لهم رغبة فى الالتحاق بالجامعة غير أن الفقر يحول دون بلوغ مأربهم

وهنا قال مستر استيرن « هذا ما كنت أتوقعه ولكن بما أننى ممن يشجعون مواصلة التعليم بالجامعة ، فسأضع أمامكم عرضا . سأقوم بدفع كل نفقاتكم فى الجامعة ـ من سفر ونفقات المعيشة

وكتب ومصاريف مدرسية ومصاريف شخصية ـ لمدة اربع سنين ، وليختار كل منكم الجامعة التى يفضلها والمواد العلمية التى تروقه . ولى شرطان ـ ان يعد كل منكم ببذل قصارى جهده وقت التحصيل فى الكلية . وأن يأتى الى كل فرد منكم بعـــد نهاية السنين الأربع ويسلم الى قياده طائعا مختارا ـ كرر مستر استيرن هذين الشرطين بـنبرات أكيدة بطيئـة ـ ثم أردف ، ستقدمون الى امتحان أضعه لكم حينئذ ، ولن يكون فى ذلك الامتحان ارهاق او تعجيز ،

وجه الشبان اعمق عبارات شكرهم وقـد اذهلهم ما سمعـــوه واعقبوا ذلك بالمـوافقة الممتزجة بالأنشراح والحمـــاسة .

توالت الايام وفى يونيو سنة ١٩٢٤ ، حضر الى القصر المنيف بالحى الخامس من نيويورك ثلاثة من أنبغ خريجى الجامعات . أحدهم رالى الحائز على درجة الامتياز والشرف والقانون من جامعة « يال » والآخر هملت الحائز على درجة الامتياز والشرف من جامعة هارفرد فى العـلوم الفلسفية والآداب القديمة ثم بروكفيلد بدرجة الامتياز والشرف فى اللغة الالمانية والفرنسية والاسبانية من جامعة جون هوبكنز .

استقبلهم مستر استيرن بترحاب وحياهم تحية حارة ، ثم أخذ كلا منهم على انفراد فى حجرته الخاصة ، وسلم لكل منهم مظروفا طويلا مبصوما ومكتوبا عليه اسم الشاب وكلمة « خاص » وقال لكل منهم بدوره « عدنى وعد شرف الا تفتح هذا المظروف الا عند ما تصل الى المنزل وتجلس منفردا وستجد بداخله كل التعليمات الخاصة بالامتحان »

فوعده كل منهم بذلك وأخذ المظـروف وانصرف الى منزله فى تارى تون وفى ذلك المساء كان كل منهم يتطلع الى تحويل مالى بمبلغ ٥٠٠٠ ريال وورقة كتب عليها ما يأتى :

هذا امتحانك

١ . عليك فى خلال اثنى عشر شهرا ان تقوم بزيارة هولندا او سويسرا ثم المانيا او فرنسا ثم ايطاليا أو اليونان وأخيرا عليك بزيارة مصر حتما

٢ . عليك ان تكتب تقريرا عما تفتكره مهما فى الاقطار التى قمت بزيارتها ، وترفع الى ذلك التقرير

قبل نهاية اثنى عشر شهرا

٣ . لك أن تحضر أو ترسل لى صندوق ثقاب « كبريت » مملوءا برمال الصحراء من سفح هرم الجيزة الأكبر .

ملاحظة — لا تسأل أى سؤال يختص بهذا الامتحان لا كتابة ولا شفاها ، لا بطريقة مباشرة ولا غير مباشرة . لا تستشر أى انسان عن محتويات تلك الوثيقة ولا عن عزمك أو طريقك فى العمل بموجبها .

هذا امتحانك فتذكر وعدك الشريف ؟ — الامضاء

تحريرا فى ١٨ يونيو سنة ١٩٢٤ — ى . ف . استيرن

وهنا انكب مستر رالى الحائز لدرجة الامتياز والشرف فى القانون والتاريخ على تفهم تراكيب وقواعد ومعانى الوثيقة بكل قواه ، وجعل يقرأها ويكررها ليدرك كلياتها وجزئياتها وكأنه كان يحل لغزا غامضا ، حتى أتى على كل شاردة وواردة فيها .

وأخيرا همس مستر رالى الى نفسه ، لقد وعدت أن أنفذ هذا الامتحان بغيرة واخلاص وواجبى ان أفعل ذلك . ان الرجل لا يطلب منى شيئا لنفسه . بل كل واجبى ان اطيعه فى تأدية الامتحان المتفق عليه ، ولذلك فسأحترم كل كلمة من كلماته بنصها . لن أزيد على شروطه شيئا ففى ذلك سوء استعمال لنقوده ولن انقص شيئا ففى ذلك خروج على عهدى .

وبهذا الروح قرأ مستر رالى تعلياته وأطاعها باخلاص تام

التى نظرة على الشرط الأول فوجد ان له الخيار فى زيارة بعض الاقطار اما مصر فهو ملزم بزيارتها ، عندئذ رسم لنفسه خطة بمقتضاها يبدأ بهولندا ثم فرنسا وايطاليا ثم مصر وبعدها يقفل راجعا الى وطنه .

وفعلا أخذ احدى البواخر الهولندية وكان سيرها يقضى عليه بالمرور ببريطانيا ، ولكن مستر رالى وان كان يحب ان يرى تلك البلاد غير انه وجد ذلك منافيا للشروط فبقى فى الباخرة دون أن يضع قدمه على الشاطىء الى ان غادرت انجلترا ووصلت الى هولندا . وهنا فكر فى الوصول الى

فرنسا بالسكة الحديدية ومعنى ذلك انه سيخترق بلجيكا بالقطار ويترتب على ذلك ان يذكر مروره بتلك الدولة فى تقريره ، وفى هذا شىء من اهماله للشروط . وعليه فقد عول على الطيران من امستردام بهولندا الى باريس مباشرة وبهذا شعر بشىء من الحزم والارتياح

ورجع والى عن طريق ميناء الاسكندرية ومنها الى نيويورك مراعيا التدقيق التام فلم يضع قدمه فى مالطة ولاجبل طارق ولا اى ميناء آخر .

ثم تأمل رالى فى القسم الثانى من الامتحان لاسيما عبارة ماتفتكره مهما وهنا ادرك ان المقصود منها ليس «كل» ماتفتكره مهما اذاً فله ان يختار أهم شىء وعليه عول على ان يقدم تقريره عن الصحة مراعيا فى ذلك مايفيد وما يضر بالصحة العامة .

وعمد رالى الى جداول احصائيات الاعمار فى كل دولة زارها ودون ملاحظاته عن حالة الالعاب الرياضيـة ودورات المياه وطـرق التهوية فى تلك الدول ومقدار تأثيرها فى حياة السـكان وأعمـــارهم

انتقل رالى الى القسم الثالث من الامتحان فوجده ظاهرا لا يقبل التأويل

وحدث انه بلغ الاهرام ، فحاربتـه تجربة شديدة اذ زين له ان يمـلأ صندوقا ثانيا من الرمال يكتب عليه « من بين كفى أبى الهول » وقصد بذلك عمل مفاجأة ظريفة · ولكنه فكر فى الامر مليا فوجد أنه ليس له سلطان على هذا العمل الذى لم يرد ذكره فى التعليمات ، وعندئذ تراجع عن فكرته .

وعندما تم مستر رالى كل النصوص المذكورة ضم تقريره الى صندوق الثقاب المملوء بالرمل من سفح هرم الجيزة الاكبر بعد ان غلفه جيدا حتى لا تتسرب محتوياته ، ثم ارسلها مسجلين بالبريد الى المنزل بالشارع الخامس فى نيويورك فى آخر مايو ١٩٢٥ .

اخيرا وصل رالى الى منزله فى تـارى تون ، وهنـا وضع يده فى جيبه فوجـد ان ٥٢٣ ريالا و ٧٥ سنتا «قيمتها ثلاثة ارباع الريال» لا تزال باقيـة لم تصرف . فردد فى نفسه تلك العبارة « هذا امتحانك » وعندئذ شعر بوخز ضميره الحى ، وكان أن وضع تلك القيمة طى رسـالة أخرى باسم

مستر استيرن ، صاحب المال حقا وشرعا .

* * *

مستر آرثر هملت خريج جامعة هارفرد بدرجة الامتياز والشرف فى العلوم الفلسفية والآداب القديمة ـ قرأ ورقة امتحانه بعناية فائقة ، بيد أنه انتهج لنفسه سياسة اخرى تختلف عن سياسة مستر رالى .

ثم همس الى نفسه ، انه امتحان على أى حال وبعد أن قرأه ثانية أطرق هنيهة وقال « ان العقدة فى الجزء الثالث » .

وبادر بأقرب فرصة فحجز لنفسه حجرة باحدى البواخر من عابرات الاتلانتيك ، وصرف بعض الأيام قبل السفر فى مكتبات نيويورك ، ولما اجتاز المحيط توجه الى لندن وقصد المتحف البريطانى يدرس ويبحث ويدون المذكرات ، وصرف على هذا الحال شهرا كاملا ذكره باشد ساعات الدرس عناء أيام الكلية . وأعقب ذلك بزيارة عاجلة لهولندا ثم ثلاثة شهور فى المانيا ومثلها فى ايطاليا وأخذ ثلاث شهور فى مصر .

ثم ضمن نتيجة ابحاثه فى ثلاث رسائل قيمة تشتمل المظاهر الخاصة بالحالات الصناعية والعلمية والدينية فى كل من الاقطار الثلاثة السابقة ، ثم لخص أسباب ونتائج الحركات الحديثة القائمة فى المانيا وايطاليا ومصر وما تتركه من أثر فى أوربا وأمريكا • فتضمن تقريره آراء حاسمة عن موت الروح الدينى فى المانيا وإيطاليا وعن المبدأ الفاشستى وكيفية تخليده لشخصية موسولينى ، وقتله لفن الادب الايطالى فى نفس الوقت .ثم أن مصر لن يمضى عليها زمن طويل حتى تغير الموقف التجارى والدينى فى الشرق بأجمعه . ولما أرسل مستر هملت هذا التقرير تم طبعه وما كاد ينشر حتى نال اهتمام العالم وأثار بحثا طويلا وأحرز مركزا خاصا فى بريطانيا وأمريكا كرسالة رائعة فى فن الأدب

ثم بدأ هملت يسائل نفسه : لقد طلب منى استيرن أن أبذل أقصى جهدى ، وهو محق فى ذلك وهذا فرض على . قال أنه يرغب فى امتحان ثقافة الجامعة . وكل سطر من سطور الامرين رقم ١و٢ من شروطه ينبىء بأنه يرغب فى اختبار ملكة تحكم العقل وبعد النظر وملكة تكوين الرأى وقوة

التمييز والتفريق بين المهم والتافه من الاشياء . ثم استمر هملت يسائل نفسه ، الامر رقم ٣ — ترى هل هو أمر ؟ — هنا اللغز . هل اضافة مستر استيرن ليرى هل لنا من سلامة الذوق ما يشجعنا على حذفه ؟ وعلى أي حال فصندوق الكبريت أقل الاشياء صلاحية لاحتواء الرمل .

ولما اشتدت به الرغبة فى اهمال الامر رقم ٣ . بدأ هملت يستشير كثيرين من الثقات عن الخواص الجيولوجية للرمال المصرية ، عله يجد فيها صفة نادرة أو خاصة لم يقف عليها من قبل فلم يجد . وأخيرا ذهب الى وطنه وأرسل تقاريره وبعد تردد طويل أرسل كيساً صغيرا مملوءا بالرمل ، وصرح بأنه يخشى أن يكون قد أساء فهم تعليمات البند الثالث .

* * *

أما مستر تشارلس بروكفيلد خريج جامعة جون هوبكنز الحائز على درجة الامتياز والشرف فى اللغة الالمانية والفرنسية والاسبانية ، فما كاد يلقى نظرة على ورقة الامتحان والتحويل المالى حتى كاد يفقد صوابه لشدة فرحه ، ولما أفاق من ذهوله عمد الى يراعته وحرر هذه الرسالة :

تارى تون فى ١٨ يونيو ٩٢٤

سيدى المحترم مستر استيرن

امام منحتك السامية التى ضمنت لنا عاماً كاملا كله تمتع ومرح بعد أن سبقت فشملتنا بعطفك طويلا ، أجد نفسى عاجزا كل العجز عن أن أقوم بشكرك مهما أوتيت من الفصاحة والبيان . طالما تمنيت فى الاحلام لو أتيح لى قضاء شهر واحد فى أوربا والآن ها أنا أملك عاماً ! عاماً كاملا لا يكلفنى درهما واحداً ! وايم الحق انك ملك السخاء والكرم

تنازل ياسيدى بقبول فائق ثنائى واحترامى م؟

خادمك المطيع

تشارلس بروكفيلد

حمل بروكفيلد تلك الرسالة وهو يهذى كالمجنون طول الطريق الى أن أودعها صندوق البريد ، ثم قفل راجعاً يبحث عن الباخرة حتى بلغها ، بيد أنه عزم على أن يعرج فى طريقه على انجلترا حيث

زار أهم أعلامها ومنها الى هولندا والمانيا فسويسرا وهنا عرج على اسبانيا ثم اتجه الى ايطاليا ، ولم يفته أن يدون فى كل بلد ما يراه من الملاحظـات والصور . ثم وصل الى مصر وتمتع برؤية أشهر آثارها غير أنه أبدى اهتماماً زائدا بكل ماله صلة بتاريخ اخناتون ، كما رسم بريشته عدة صور للقوارب السابحة فى النيل وما تبعثه فى النفس من سحر وجمال ، وامام مشهد الصحراء أبدى أسفه بالقول : ليس لى من قوة الفن ما يمكننى من التعبير عن صمت الصحراء الرائع .

وأخيرا رجع بروكفيلد الى نيويورك فى أول يونيو بعد أن صرف الخمسة آلاف ريال عن آخرها الا انه تمكن من الحصول على مائة وخمسين ريالا عن طريق بيع عشرين صورة من المناظر التى رسمها فى أثناء رحلته . ثم اتجه توا الى منزل استيرن يريد مقابلته فأخبره السكرتير بأنه فى سفر . فأجاب بروكفيلد بأنه يرغب فى أن يترك له طردا صغيرا ورسالة ، فادخل الى المكتبة حيث حرر الرسالة الآتية

نيويورك فى أول يونيو ١٩٢٥

سيدى العزيز

الآن أرجع بعد نهاية رحلة عام كامل حافل بكل معانى اللذة والسعـادة ، وذلك بفضل تلك المنحة السامية وقد وضعتها خلف ذلك الستار الذى سميته «الامتحان» ولقد بذلت كل وسعى لارضى ممتحنى بكل ما أوتيت من جد وولاء فزرت كل الاقطار التى ذكرتها واكثر مما ذكرت ، ثم كتبت تقريرا عن كل مارأيته مهما . وأقصد به جمال الفن والطبيعة . أما عن الشرط الثالث فلعلك أردت أن تكشف به عما اذا كنت اذكرك فى وسط سرورى ونشوتى ، وها أنا ذا كنت اذكرك يوميا واكبر دليل اننى ألتمس ان تتفضل بقبول صندوق الثقاب الموجود طيه مع ما يحويه من الرمال المصرية .

المخلص

تشارلس بروكفيلد

وبعد أن وقع بروكفيلد بامضائه على الرسالة أخرج من جيبه علبة مغلفة ، هى صنـدوق الثقاب وقد صنع باتقان من الذهب النقى الخالص تزينه النقوش الجميـلة ، فأتى آية فى الابداع . ولـكن مع شديد الأسف لم يكن الغلاف الخارجى محكما فتسربت منه معظم الرمال فى جيب بروكفيلد وعن طريق ثغرة فى جيبه تسربت الى الارض فى أثناء سيره . وبقى عليه أن يلتجىء الى الرسالة ليضيف اليها

ملاحظة يشرح فيها ماحدث ويندب فيها سوء حظه لفشله فى اتمام ماطلب منه .

فى شهر يناير سنة ١٩٢٦ مات مستر استيرن فجأة دون أن يكون له من الاقربين من يخلفه فى ثروته ، وكان قد سبق فكتب وصيته التى تقضى بأن تصبح عماراته الثلاث الفخمة بمحتوياتها وكل ثروته وقيمتها أربعة ملايين من الجنيهات لأحد الشبان الثلاثة الذى يحرز بعد نهاية الامتحان اكبر قسط من الذكاء والاهتمام والاخلاص فى اطاعة الشروط .

أيهم ياترى نال الميراث ، هل هو خريج جامعة يال أو هارفرد أو جون هو بكنز ؟

أيها القارىء الكريم لعلك بما أوتيت من قوة الحكم تستطيع بسهولة أن تصل الى الجواب الصحيح وتدرك بثاقب فكرك من ذا الذى فاز فى الامتحان .



ليوبولد الثالث ملك بلجيكا الذى زار لندن فى الشهر الماضى

الارامل الصبايا فى الهند

الارملة فى الهند قد تكون امرأة وقد تكون فتاة لم يتم بينها وبين زوجها تعارف جنسى وفى الهند نحو ١٨ مليون أرملة منهن أكثر من عشرة آلاف سنهن دون الثامنة. اطفال لا يعرفن انهن قد تزوجن او أن آباءهن قد زوجهن وهن فى السنة الثانية او الثالثة من اعمارهن . وقد يموت الزوج دون ان يفتضهن فيبقين ارامل ابكارا

وقد سنت الحكومة قانونا يمنع زواج الفتيات اذا كن دون الرابعة عشر . ولكن هذا القانون حديث لم تدركه ملايين من التعيسات اللاتى يعانين الترمل الآن . كما انه لا ينفذ فى القرى النائية فان الهند كبيرة تشبه القارة وفيها طبقات تعيش بعيدة عن الحضارة ولا تكاد تعرف شيئا عن القوانين الا ما توارثته من التقاليد . ولذلك لا يزال زواج الاطفال قائما . فان العادة ان البنت عندما تولد او بعد الولادة ببضع سنوات يعقد لها بالزواج على اى رجل فتى او شيخ . وهذا لا يدخل عليها الا بعد ان تبلغ العاشرة او الثانية عشر . ولكن يحدث ان يموت الزوج قبل دخوله عليها . وعندئذ تصبح هذه المسكينة ارملة

والأرملة مكروهة فى الهند وخاصة إذا لم تنسل لان الديانة او التقاليد الهندوكية تقول بان الزوج لم يمت الا لأن زوجته قد اذنبت فى حياتها الراهنة أو السابقة . والهندوكيين يعتقدون أنهم عاشوا على هذه الارض فى حياة سابقة . وان وفاة الزوج هو الجزاء لهذا الذنب. فهى لذلك مسئولة ومطالبة بالتكفير . وطرق التكفير كثيرة ولكن افضلها ان تقصد الأرملة الى المعبد حيث تعيش سائر حياتها جارية فى خدمة البراهمة اى الكهنة . فهى تسلم عفافها لهم أو هى بعبارة أخرى تصير عاهرة فى خدمة الدين . ولا يقتصر عهرها على البراهمة اذ قد يتجاوزهم الى غيرهم من الزائرين للمعبد

وفى هذه العادة ما يعيد الينا ذكرى بعل والبغايا اللاتى كان الكهنة فى معبده يستخدمونهن

ولكن المعابد الهندوكية لاتتسع لملايين الأرامل . فان جلهن يبقين فى البيوت يعشن كالخادمات بل اسوأ . فلا يجوز للأرملة أن ترسل شعرها أو تتجمل . وبدهى أنه لا يجوز لها أن تتزوج . وعليها أن تخفى نفسها عن الجميع لأنها شؤم لايرتاح الى رؤيتها أحد . والمرأة عند الهندوكيين لا ترث شيئا عن أبويها أو زوجها أو أى شخص آخر . وحرمانها هذا يجعلها تعيش كالأمة التى تتوقف حياتها على العطف بل التحنن ممن حولها



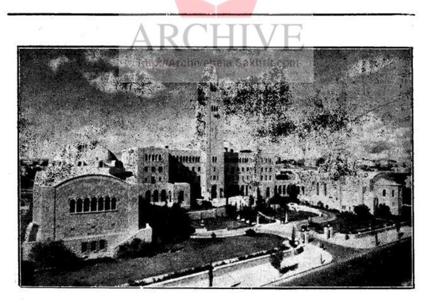
أرامل قد تتلمذن فى مدرسة فى بونا بالهند

ومن هنا كانت كراهة الام الهندوكية لولادة البنات . فان الديانة تقول بحاجة الأب الى أن يتمم ابنه الشعائر الجنازية عليه بعد وفاته . فاذا لم يولد له غلام فانه يعد نفسه ناقصاً لم تتح له فرصة الوفاة الكاملة . ولذلك ترغب الأمهات الهندوكيات فى ولادة الغلام كثيرا . وهن يبكين مر البكاء عندما يعرفن من القابلة أن المولود بنت . بل منهن من تئد البنت عقب الولادة

ولهذا الشقاء الذى تعانيه الأرملة الهندوكية فكر رجال البر من الانجليز والأمريكيين فى انشاء المدارس لتعليم الأرامل . والسن تتراوح فى هذه المدارس بين الثامنة والعشرين . وقد شرع الهندوكيون يدركون الشقاء الذى قسم لاراملهن فاخذوا ينشئون المدارس لهذه الغاية أيضا . ويرى

القارىء هنا صورة مدرسة للأرامل يديرها رجل هنـدوكي فى مدينة بونا هو المستر وفارذا . وتتعلم الأرامل فى هـذه المدرسة القراءة والكتابة والقليل من الانجليزية ولـكن الاهتمام الأكبر يتجه نحو تعليمهن النسج حتى يستطعن أن يعشن مستقلات بكد أيديهن وهن بعيدات عن الاختـلاط بالاسر التى تتشاءم برؤيتهن . أو يعشن فى بيوت الانجليز خادمات

وقد استطاع الانجليز أن يمنعوا أحراق الارملة بعد وفاة زوجها . ولـكنهم لم يستطيعوا رفع الأرملة الى المكانة الانسانية : فانها لاتزال محتقرة مهـانة مبعدة . وأعظم ما يخدم الارامل فى الوقت الحاضر هو مدارس المبشرين المسيحيين . وهى كثيرة منتشرة فى أنحاء الهند . وكذلك القليل من المدارس الهندوكية التى انشأها المجددون مثل هذا المستر وفارذا ، ولـكن التقاليد المرهقة للنفس الهندية لايمكن أن يزول ارهاقها الا بعد جهاد من السنين



مبنى جمعية الشبان المسيحية فى القدس . وهى تضم المسلمين والمسيحيين واليهود على الرغم من الشقاق القائم بين اليهود والعرب

اربعون سنة فى البرية

عنوان لفصل من كتاب « سينا أمس واليوم » وضعه بالانكليزية محافظ سينا السابق المستر جارفز ،وقد نشره بعد أن أقام في صحراء سينا تسع سنوات متوالية متنقلا بين أجزائها المتعددة مختبرا وفاحصا فيها بحكم عمله كمحافظ لسينا

وقد عالج فى هذا الفصل موضوع خروج الاسرائيليين من مصر الى شبه جزيرة سينا وبقائهم فيها نحو اربعين عاما . وقد تضمن بحثه الشيء الكثير من المعلومات التاريخية ، والجيولوجية وغيرها مما جعل كتابه ذات قيمة كبيرة خصوصا وقد دلل على كل ما يراه بأدلة علمية واضحة كل ما يرد فى هذا المقال مأخوذ عن المؤلف :

مسألة خروج بنى اسرائيل أى اليهود من مصر الى برية سينا من المسائل التى عولجت كثيرا بشيء من الاهتمام وذلك لتعدد وجهات النظر فيها ولأنها تتعلق بشعب اسرائيل الذى يعتبر هذه الرحلة رحلة مقدسة

ولأنها تتعلق ايضا بقدماء المصريين اكثر أهل زمانهم مدنية ولو أن المصريين لم يتركوا بين آثارهم ما يدل على هذا الحادث الخطير « فى رأى اليهود » ، ولم يعترفوا لوجود اليهود بينهم كفئة من العمال .

وقد كانت مصر فى ذلك العهد أمة عظيمة لها جيش قوى ، فاذا كان اليهود قد حاولوا الخروج من مصر بصورة هاربين فلا بد ان الحكومة حاولت ارجاعهم . ومراجع التاريخ لا تذكر لنا أن فرعونا مصريا غرق فى ذلك التاريخ فاذا كان قد خرج مع جيشه فانه لم يكن من بين الضحايا .

أما التعليل الذى يراه المؤلف لعزم اليهود على الخروج من مصر هو انهم كانوا يعيشون فى البلاد كما يعيش العرب فى البادية قرب الحدود فلما تقدمت المدنية رأت الحكومة عدم اعفائهم من الضرائب واشتراكهم فى الاعمال الاجبارية التى تفرضها الحكومة على عامة الشعب ومن اهم هذه الاعمال امداد الحكومة بقدر معين من اللبن « الطوب » كل يوم ليستعمل فى

بناء الاجران والمخازن وكانت الحكومة تعطيهم التبن اللازم لذلك فى أول الامر فلما تكاسلوا امنعت التبن وجعلتهم يجمعون بدلا عنه القش على أن يؤدوا المفروض عليهم كل يوم بيومه المعتاد . وكان ذلك العمل فى نظر اليهود عملا قاسيا لا يطاق « كما أن أى عمل يعادله يعتبر شاقا فى نظر كل العرب الرحالة حتى يومنا هذا » ولو أن ذلك العمل كان فى الواقع عملا بسيطا محتملا .

وهنا بدأ تذمرهم من أرض مصر فحاولوا الخروج الى البرية حيث لا عمل فى الطين أو التبن .

والآن نعالج بشىء من التطويل مسألة خط سير اليهود فى البرية لأنها مسألة فيها اشكال كبير وسأتجنب الاكثار من ذكر اسماء الأماكن لغرابتها عنا .

الزعم الاول لخط السير هو أن الشعب بدأ من نقطة تقع جنوب غربى بور سعيد بنحو عشرين ميلا . وعلى هذا الاساس تكون حادثة غـرق جيش فرعون قـد تمت فى بحيرة التمساح ويكون الشعب قد سار أولا فى شمال سينا ثم بعد ذلك اتجه نحو الجنوب .

وهناك رأى آخر يقول بأنهم ابتدأوا من نقطـة تقع جنوب غربى الاسماعيلية بنحو عشرين ميلا وعلى ذلك فحادثة الغرق لم تتم فى بحيرة التمساح والترحال لم يكن فى الشمال مطلقا .

وقد حاول اللاهوتيون الذين زاروا سينا فى العصور الحديثة دراسة الطريق الذى سلكه بنو اسرائيل فى البرية وبعد الفحص والتمحيص استقر رأيهم فى آخر الامر على الأخذ بالرأى المعمول به من ٣٧٠٠ سنة ! ! لأنهم وجهوا كل ما بحثوه بحيث يتفق مـع ما جاء بالحرف فى التوراة ولأنهم أخـذوا الحروف التوراة المعنى « من مجموعة المعـانى التى يمكن أن تعبر عنها كثير من الحروف » أخذوا المعنى الذى يتفق مع ما وجدوه مستقرا على تعاقب الاجيال . وهذا الرأى يقول بان الاسرائيليين عبروا خليج السويس ثم اتجهوا جنوبا الى المنـاطق الجبلية فى وسط سينـا فى وادى فيران ثم الى قرب جبل موسى حيث سلم لوحى الشريعـة . ثم الى أرض ادوم بجـوار العقبة ليصلوا الى فلسطين .

أما غرق جيش المصريين فقد تم فى خليج رأس السويس أو فى البحيرة المرة التى يحتمل أنها كانت متصلة بالبحر الاحمر فى تلك العصور . وهذا الرأى كان سائدا حتى وقت قريب جدا .

ومن الناس من يطلب تفسيرا أكثر قبولا للعقل فى مسألة غرق جيش المصريين فيرفضون بالرأى

القائل بأن حادثة الغرق قد تمت فى احدى المنخفضات الرملية الواسعة قرب السويس حيث طغى البحر عليها بسبب مد عال ناتج من ريح شرقية عاصفة . ومن المستغرب أن المسلمين يعتقدون أن حادثة الغرق تمت فى الجانب الآخر من سينا عند خليج العقبة أى قريبا من الأراضى الاسلامية المقدسة . ولو أن مسألة وجود جيش المصريين شرقى السويس فى ذاك الوقت مسألة لا تفهم !

والرأى السائد حتى عهد قريب جدا عند كل الناس وحتى اليوم عند الكثيرين هو أن شعب اسرائيل عاشوا فى البرية فى جنوب سينا حول جبل موسى الحالى . وقبل أن نورد الادلة على ما يعارض هذا الرأى نأتى بوصف موجز لبرية سينا .

شبه جزيرة سينا على شكل مثلث قاعدته فى الشمال ورأسه فى الجنوب فى البحر الاحمر . وتنقسم الى ثلاثة أقسام

الاول : منطقة رملية واطئة تقع فى الشمال على امتداد ساحل البحر الابيض المتوسط

الثانى : هضبة من الحصا والاحجار الجيرية وتلى المنطقة السابقة وتشغل وسط سينا

الثالث : المنطقة الجنوبية وهى عبارة عن جبال جرانيتية مرتفعة .

وفى المنطقة الاولى فى الجزء الواقع شرقى مدينة العريش نجد أرضا رملية تنتج محصولا زراعيا جيدا خصوصا من الحبوب . وهناك أسباب جيولوجية تؤيد أن الجزء من هذه المنطقة الواقع غربى العريش كانت له نفس الطبيعة الزراعية أما الرمال التى تغطيه الآن فكلها حديثة للغاية وهى تغطى غابات كثيرة كانت موجودة فى عهد سفر الخروج من أسفار التوراة وآثارها الحالية تدل عليها .

وهناك رأى سائد بأن بنى اسرائيل اعتمدوا على المن واللهى والسمان فى غذائهم فى أثناء تجوالهم ٤٠ سنة فى البرية وهو رأى خاطىء يوضح خطأه دراسة سفر الخروج بامعان فنرى من هذه الدراسة الدقيقة ان المن لم يستعمل الا فى الاشهر الاولى القليلة ، وفى فترات القحط . وانهم فيما عدا ذلك زرعوا الارض والدليل على ذلك أنه عند تقديم الضحايا فى الاعياد وفى الحفلات كان الخبز واللحم متوافرين .

ووجود الدقيق والزيت والخراف والثيران والحمير وغيرها دليل كاف على أن الشعب استنبت الارض وأغلب الظن أن معيشة اليهود ٤٠ سنة فى البرية شبيهة بمعيشة أهل سينا الحاليين من حيث

استغلال الارض الزراعية والانتفاع بالنخيل واتخاذ الجهات الجبلية كمرعى للأغنام فقط .

ولا بد أن شعب اسرائيل حاربوا السكان الاصليين وأخذوا أرضهم . وحربهم مع عماليق يصفها سفر الخروج فى اصحاح ١٧ الاعداد من ٨ الى ١٦ . وبانهزام اولئك السكان سمحوا لليهود بأخذ أرضهم . ومثل هذا الامر يحدث مع العرب الرحالة فى وقتنا الحاضر ، وكذلك كان يحدث فى مصر وفلسطين قبل أن تهتم حكومتاهما بتنظيم شؤون العرب .

ولأن موسى قد تزوج بنت جسرو كبير قبيلته فى سينا فقد عاش اليهود مع هذه القبيلة فى وئام ويقال ان القوانين والانظمة التى وضعها موسى للشعب كانت من تدبير هذه الشيخ الخبير بشؤون المعيشة فى البرية . ومما يؤيد هذا أن هذه القوانين والشرائع هى المتبعة مع أعراب البادية حتى عصرنا الحاضر .

والآن نورد الادلة على أن اقامة شعب اسرائيل كانت فى شمال سينا لا فى جنوبها مبتدئين ببيان الخطأ فى زعم المتحمسين لفكرة الجنوب . اذ أنهم يرتكنون فى زعمهم هذا على التقليد وحده وهو دليل غير كاف مطلقا خصوصاً اذا علمنا أنه بحكم التقليد ظل جبل سربال نحو ١٥٠٠ سنة آخرها سنة ٣٠٠ ميلادية معتبرا أنه جبل الشريعة . وبعد ذلك عندما بدأ المهاجرون المسيحيون يكشفون عن خط سير الاسرائيليين فى البرية وعن جبل الشريعة رأوا أن جبل موسى هو جبل الشريعة . ومعلوم أن الحقائق فى الصحراء تتعرض للغموض والنسيان بطول الزمن

والادلة على أن الطريق ومعظم وقت الاقامة كانا فى الشمال هى : —

(١) مسأله ارتفاع جبل الشريعة : ذكر الكتاب أن هذا الجبل مرتفع للغايه وحقا أن جبل موسى فى جنوب سينا من أعلى جبالها أذ يبلغ ارتفاعه نحو ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ولكن مسألة الارتفاع ادرا كها نسبى . ففى الشمال جبال لا يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر ومع ذلك فمن يراها ينطبع فى ذهنه أنها شاهقة للغاية وانها أكثر ارتفاعا من جبل موسى والعلة فى أن جبال الشمال هذه تحوطها مناطق واطئة للغاية . أما جبل موسى فحوله عدد كبير من قمم المرتفعات التى قد تعلو عنه وعلى ذلك فادراك العلو دون اتخاذ منسوب معين كسطح البحر لا يتوقف الا على حالة الاراضى المحيطة بالجبل . ولا أظن أن كاتب سفر الجامعة أو اهل زمان الخروج كانت لهم

وسائل قياس الارتفاع بالنسبة لمستوى سطح البحر .

(٢) والدليل الثانى هو أن جبال الجنوب جرانيتيه وهى حقا تبعث فى النفس رهبة وتشعر من يقربها بانها مقدسة وأنها أولى من غيرها باقامة شعب الله حولها فى رحلته المقدسة ، ولكنها ليست ارضاً صالحة للزراعة مهما كانت كمية الامطار التى تسقط عليها وأن انتاجها فى أحسن المواسم لايمكن أن يكفى الشعب وما كان معه من انواع الحيوان . وأهم محاصيل هذه المناطق هو التمر وقليل من انواع الفاكهة ولا تزيد المساحة التى تصلح لزراعة القمح فى جنوب سينا باجمعه على ٥٠ فدانا .

أما أراضى سينا التى تنتج الحبوب بوفرة فهى كما ذكرنا اراضى الشمال خصوصا شرق العريش الآن وشرقى وغربى العريش فى أيام الخروج وهناك من الاثار ما يثبت أن هذه البقاع قد استمتعت فى ازمنة ماضية بأوفر من حالتها الراهنة وأن اناسا متقدمين نوعا فى الزراعة قد استغلوها .

وشعب اسرائيل كما ذكر لنا فى سفرى الخروج . والعدد كان من طبقات منوعة فمنهم الكهنة واصحاب الحرف ، والرعاة وغيرهم وهذا يدعونا الى القول بأن الفئات الأولى اتخذت البقاع الشمالية مسكنا لها فى حين ان الرعاة قد اختاروا وسط وجنوب سينا حيث الاراضى تصلح لرعى الماشية ..

وربما يعترض على الرأى المرجح لفكرة الاقامة فى الشمال بأن هذه الاراضى لا تكفى لمعيشة ٣ ملايين نسمة ، وهوما يفهمه المعارضون مما جاء عن عدد أفراد كل عائلة خرجت مع موسى من مصر « كما ذكر فى العدد الاصحاح الأول » .

اذ ذكر بعد عدد افراد كل عائلة أن عدد المقاتلين فوق سن العشرين هو ٦٠٣٥٥٠ مقاتلا فاذا قدرنا لكل فرد من هؤلاء زوجة وطفلين وأحد الوالدين « وهذا طبعا تقدير متواضع جدا بالنسبة للعائلات الشرقية . » كان العدد نحو ٣ ملايين . وخروج مثل هذا العدد الضخم دفعة واحدة من مصر الى البرية وأقامته بها نحو ٤٠ سنه أمر لا يمكن أن يصدقه من له خبرة بشؤون الصحراوات .

وهذا مما دعا بعضهم الى التعرض لازالة ما فى هذه المسألة من غموض فوفق الى تفسير مقبول وهو أن الكلمة العبرية التى معناها آلاف لها معنى آخر هو عائلة أو قسم فاذا ذكر لنا أن بنى رأوبين بكر اسرائيل كان تواليدهم حسب عشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الاسماء برؤوسهم كل ذكر من ابن عشرين

سنة فصاعدا كل خارج للحرب كان المعدودون منهم لسبط رأوبين ٤٦ الفا وخمس مئة فانه يمكن تفسير ذلك بأن يحتوى السبط ٤٦ عائله ، ٥٠٠ مقاتل . وهكذا مع بقية الاسباط واذا اخذنا بهذا التفسير كان عدد المقاتلين من كل سبط يتناسب مع عدد العائلات .

وهذا يستلزم اعتبار أن احصاء مجموع المقاتلين ، ٦٠٣٥٥٠ احصاءاً مغلوطاً أما .بالاعتبار الجديد يكون عدد المقاتلين ٥٠٠ و ٣٠٠ و ٦٥٠ و ٤٠٠ و ٤٠٠ و ٥٠٠ و ٢٠٠ و ٤٠٠ و ٧٠٠ و ٥٠٠ و ٤٠٠ يساوى ٥٥٥٠ مقاتلا

فاذا قدر أن كل محارب يعول خمسة اشخاص فى المتوسط كان عدد بنى اسرائيل نحو ٢٧ ألفاً « لا عائلة طبعا » وهو جمع يمكن خروجه الى البرية واقامته بها ومعيشته فى سينا الشمالية الزراعية التى يقطنها نحو هذا العدد فى العصر الحديث .

ومما يثبت أن عدد الشعب كان أقل من ٣٠ ألفا أمران :

الأول : أن موسى كان يحكم بنفسه فى جميع المنازعات والقضايا

الثانى : انه كان يوجد بين كل هذا الشعب قابلتان « دايتان » لاغير .

وما دمنا قد تعرضنا للمقارنة بين طبيعة الارض فى الشمال وطبيعتها فى الجنوب فانى اذكر هنا أن قادس التى ذكرت كثيرا فى سفرى العدد والجامعة ليست هى كما يظن عين قادس الواقعة على الحدود بين مصر وفلسطين لان هذه الاخيرة ليست عينها ويغلب انها تكون هى عين الجديرات الواقعة شمالى عين قادس بنحو خمسة أميال ومنها ينبع الماء بغزارة فى مجرى فى الوادى يجعل الارض حولها خصبة . وهناك يوجد خزان متسع جدا من الحجر الجيرى له قيمته الاثريه ولا يعرف عصر انشائه ولكنه ليس رومانيا على كل حال . ويصح ان يكون من انشاء الاسرائيليين انفسهم .

الدليل الثالث لبيان ان ترحال شعب اسرائيل كان اغلبه فى الشمال هو مسألة المن

وقد قرر العلماء ان المن هو افراز حشرة صغيرة تتغذى على شجر اسمه بالانكليزية « تماركس » فى أوقات معينة من السنة وهذه الافرازات على شكل حبوب بيضاء دقيقه توجد بكثرة فى ايامنا هذه تحت هذا الشجر فى الربيع وهى ليست بالغذاء الشهى ولكنها على كل حال تحفظ الروح مع

الجسد وهذه الاشجار نادرة الوجود فى جنوب سينا وكثيرة للغاية فى الشمال . وتوجد حفريات اى آثار لهـذه الاشجار فى منطقة واسعة على ساحل البحر غطتها الرمال الحديثة .

والدليل الرابع مسألة السمان .

وقد ورد ذكره فى التوراه فى مناسبتين منفصلتين وقيل إنه كان يأتى على شكل سحابة من البحر وهذا منظر مألوف جدا يمكن مشاهدته على معظم سواحل البحر الابيض المتوسط فى كل فصول الخريف وخاصة فى سبتمبر واكتوبر بعد فجر كل يوم تقريبا حيث تندفع هـذه الطيور منهوكة القوى نحو البر لتأوى فى اى عشب يصادفها وفى بعض المواسم يسهل صيدها بالأيادى لكثرتها وقد تكفى كثرتها لاشباع جمع غفير كشعب اسرائيل . وكان سمن هذه الطيور عظيمة لدرجة أنها كانت تسبب لهم الامراض التى ذكرت فى الكتاب على أنها لعنة للشعب

وهناك مسائل أخرى كثيرة ضد فكرة الجنوب ، منها ان قدماء المصريين كانوا يجهلون شمال سينا بدليل عدم وجود أى مبنى أو أثر لهم هنالك فى حين انهم فى الجنوب عرفوا مناجم النحاس ومناطق الاحجار نصف الكريمة فكانت لهم هناك معابد ، وحامية لحراسة المناجم .

أما موسى فكان عارفا لبرية سينا قبل أن يقود اليها الشعب فقد زارها قبل وهو متزوج من بنت شيخ منها أو من شرق الاردن وليس من المعقول أن يقود الشعب الى مكان تحميه جنود الاعداء . والمعبد المصرى المسمى سراية الخادم لا يبعد أكثر من ٥٠ ميلا عن جبل موسى الذى يظن خطأ أنه جبل الشريعة

ومعلوم من سفر العدد أن الشعب أقام نحو سنة كاملة بالقرب من هذا الجبل أى على مرمى من جيوش الاعداء وفى اراض اختبرها الاعداء . فهل هذا معقول !

أما الجبل الذى تنطبق عليه اوصاف الكتاب تماما فيقع على بعد ٣٠ ميلا جنوب العريش ويسمى جبل هلال وهو جبل من الحجر الجيرى يعلو نحو ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وهو وأن كان أقل أرتفاعا من جبل موسى إلا أنه يظهر كأنه أعلى منه بكثير لأنه قائم وسط اراض منخفضة بخلاف جبل موسى .

واسم هلال يمكن أن يعنى شريفا وتستعمل أيضا للتعبير عن طريقة ذبح الحيوان ذبحا صحيحاً

كما أن جبل موسى يقترن أولا بمسألة تسليم لوحى الشريعة وثانيا بمسألة الذبائح التى كان يقدمها الشعب للرب

وفى فلسطين ومصر نجد لاسماء الاماكن فى احيان كثيرة معنى خاصا فالاقصر مثلا محرفة عن كلمة معناها الحصن . وبير شيبا معناها البئر السابعة والتل الكبير اسم لبلد له معناه . وغير ذلك كثير وكثير . وكثيرا ما يكون للتقاليد شأن فى تفسير معانى الاماكن ولكن عرب سينا لا يعرفون لماذا سمى جبل هلال بهذا الاسم ولكنك تجد بينهم من يقول أنه سمى كذلك لأنه كان مذبحا للحيوان فاذا سألته عن الوقت أو الغرض الذى من أجله جعل مذبحا فانه لا يجد جوابا .

اما اسماء الأماكن التى جاءت فى تقرير موسى فى اصحاح ٣٣ من سفر العدد فمن المسلى أن نعرف أنه لم يذكر سوى اسم واحد يقرب من اسم مكان فى الجنوب وهو وادى فيران ويغلب أنه وادى باران . أما فى الشمال فتوجد اسماء لا تعنى شيئا فى العربية ولكنها قريبة جدا من الاسماء التى ذكرت فى سفر الخروج ومن أوضحها الوش وهى غالباً العريش

ومن المستحيل أن نعين الطريق الموصوف فى الكتاب على الخريطة بالضبط وكل محاولة لا بد أن تؤدى الى الغموض .

ولكن من السهل أن نعين الشىء الكثير فى الارض الشمالية المثلثة الشكل الواقعة بين العريش ورفح والقسيمة .

* * *

وقد ذكر اسم البحر الاحمر مرتين وهذا مادعا الى اعتبار ان اليهود عبروا البحر بالقرب من السويس ولكن الكلمة العبرية المترجمة بالبحر الاحمر فى العربية ومعناها الصحيح بحر الاعشاب. وليس بالبحر الاحمر اعشاب تذكر واحسن مكان تنطبق عليه هذه التسمية هو بحيرة البردويل على البحر الابيض بين بور سعيد والعريش واذا قبل هذا المعنى فان ترحال الاسرائليين ومسألة وجود المن والسمان وأيضا غرق جيش فرعون تلتئم جميعها وينعدم التنافر والغموض الذى يشملها

نظمى شحاته

لندبرج

مثال الشباب الجسور

سمعنا كثيرا عن اسم لندبرج ولكننا لم نقرأ شيئا مسهبا عن ترجمته مع انه لا تخلو لغة حية من كتاب أو اكثر عن قصته الرائعة يقرأها الشبان والفتيات لكي يعتبروا بها وتسمو اعينهم واطماعهم الى مستواها . وفى قراءة هـذه القصة ماينير لنا عن العوامل التى حركت لندبرج الى هذه الجرأة التاريخية وعن الوسط الذى يؤهل الشباب فى الولايات المتحدة لان ينزع الى البطولة والرغبة فى المجد

ففى سنة ١٩٢٧ دهش العالم كما لو استيقظ من نوم اذ به يسمع أن شابا فى الخامسة والعشرين من عمره قد طار من أمريكا الى أوربا وكأنه قد وثب وثبة هرقلية . وأخذت الصحف مجلات وجرائد تتساءل عن هذا الشاب وتتنادر عن أصله وشخصيته وتنشر صورته

ولندبرج هو الآن فى الخامسة والثلاثين ولكن المتأمل لوجهه يشعر من بريق عينيه وشقرة بشرته أنه أشبه بالصبى منه بالرجل وهو كذلك فى الحقيقة . فان وثبته من أمريكا الى أوربا تدل على أنه يحتفظ بشىء كثير من طفولته . والا هل الرجل العاقل أو الذى ننسبه الى العقل والوقار والذى يحرص على الاعتبارات الدنيوية يرضى بهذه المجازفة؟ ولكن من جهة أخرى لنا أن نتساءل هل هذا الرجل العاقل يذكره التاريخ فى أى شىء ؟ فى اختراع أو اكتشاف أو ثورة أو تجديد ؟

نشأ لندبرج فى ولاية مينوسيتا فى الوسط الغربى من الولايات المتحدة . وابوه ينتمى الى أصل اسوجى ولكن أمه يرجع نسبها الى أصل انجليزى . وكان ابوه يشتغل بالقانون فيما نسميه « وكالة الدعاوى » وليس له نظير فى نظامنا القضائى . وقد انتخب عضوا فى برلمان الولايات المتحدة « كونجرس » من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٦ فانتقل بزوجته وابنه الى واشنطون . ومما يذكر عن

نشاط هذا الأب انه عندما وجد أن الواجبات تتراكم عليه جعل نظام عمله اليومى يبدأ فى الساعة الخامسة من الصباح فلا يزال فى مكتبه ينظر وحده أو مع سكرتيره الى أن يجتمع البرلمان . وكان الصبي لندبرج يتردد على البيت الابيض أى بيت الرياسة ويلعب مع ابن روزفيلت وانعقدت بينهما من ذلك الوقت صداقة متينة

واذا نحن تأملنا التعليم الذى حصل عليه لندبرج لم نجد فيه نظاما . فقد اضطرب تعليمه بين مدينته الاصلية وفى مدة اغترابه عنها مع أبيه فى عاصمة الولايات المتحدة . وقد التحق بجامعة وسكنسين .وكان عاديا لم يبق فيها غير سنتين ولكنه حصل على مكافآت فى الرماية بالمسدس . على أن تربية الانسان قد تتخذ طرقا خفية لاتدل عليها المدرسة أو الجامعة . فقد عرف لندبرج فى طفولته حياة الريف وعاش فى عزبة أبيه وكانت تجاور غابة شجراء حافلة بالطيور كان يلجأ اليها للتجوال والصيد . وقد تعلم ركوب الخيل والأتوسيكل وذاق لذة المخاطرة فى السرعة وهو لايزال دون الخامسة عشر . ثم كان جده لامه طبيب أسنان . وكان الى هذا مخترعا لا يفتأ يجرب



لندبرج

التجارب ويجمع الى ادوات خلع الاضراس آلات أخرى . وقد اخترع كانونا وسجل اختراعه وكان له بعض الشأن . فكان لندبرج يقصد اليه ويعالج الحديد والنحاس ويلوى قضيبا هنا ويدق مسمارا هناك فاكتسب فى ورشة جده هذه الصغيرة ميلا الى الميكانيات

وحين نقول أن لندبرج قضى سنوات فى عزبة أبيه ومارس الزراعة يجب الا نتخيل عزبة مصرية . ففى مصر نعيش فى العزبة كما كان يعيش الاوربيون مدة العهد الاقطاعى . رئيس يأمر ويشرف ولا يعمل بيديه وعمال كالموالى . ولكن العزبة الامريكية ليست كذلك . لأن الآلات تقوم مقام العمال . ولذلك فان المالك الذى يملك مائة فدان يعود هو نفسه الزارع الذى يستخدم الآلات فى البذار والحصاد والرى وغير ذلك . وقد ملأ لندبرج هذه العزبة بكل جديد من الآلات

على أننا حين نتأمل اضطراب التعليم الذى حصل عليه لندبرج يجب الا يفوتنا ان ام لندبرج كانت قبل الزواج معلمة . ولما مات زوجها عادت الى التعليم وهى تدرس الكيمياء فى احدى المدارس العالية . ومثل هذه المرأة يعد من الحظ العظيم للطفل أو الصبى أن يتربى على يديها وأن يجد فيها اما ترعاه وتغرس فيه الطموح الشريف

وفى سنة ١٩٢١ ترك لندبرج جامعة وسكنسين اى بعد سنتين من التحاقه بها . ودخل فى مدرسة للطيران . وكان سريعاً فى تعلمه للنزعة الميكانيكية التى تولدت فى نفسه من معاشرته لجده وتردده على ورشته ومعالجته لمخترعاته . ولم تمض عليه مدة حتى كان قد اشترى طائرة وصار يؤجرها للمسافرين ينقلهم لقاء أجر من بلدة الى اخرى . وهذا العمل مألوف الآن فى الولايات المتحدة حيث يقدر الامريكيون السرعة حق قدرها أو أكثر من قدرها

وفى سنة ١٩٢٣ رشح ابوه نفسه للانتخابات . فكان لندبرج يحمله على الطائرة وينتقل به الى حيث الدائرة . ولكنه لم ينجح . وفى السنة التالية توفى ابوه . وهنا نجد شيئا يليق بالطيار لندبرج وامه معلمة الكيمياء . فانهما احرقا الجثة وحمل الابن الرماد على طائرته وطار بها الى العزبة حيث قضى الأب ايام الطفولة وهناك نثر الرماد فوق ارضها

وكانت اقتحامات لندبرج الجوية تزيد على المألوف . ولكنها لم تكن رعونة . فانه كان يحسب لكل حركة حسابا دقيقا ويتبصر فى العواقب القريبة والبعيدة . وكثيرا ما كان يخرج الى

جناح الطائرة ويهبط منها الى الارض وهى على أقصى سرعتها تحمله البراشوت

وفى سنة ١٩٢٧ التحق بالجيش وامتحن فى ٢٣ مادة كان متوسط الدرجات التى حصل عليها فيها جميعا فوق التسعين (من مائة). وفى هذه السنة عقد العزم على قطع المحيط الاطلنطى بين القارتين على الطائرة وشرع يدرس هذا الموضوع درسا دقيقا . فقصد الى كليفورنيا وهناك جمع ثلاثة آلاف جنيه لشراء الطائرة . والمسافة بين القارتين ٣٥٠٠ ميل تحتاج الى أربعين ساعة من اليقظة والانتباه. فجعل يمرن نفسه على ذلك . يترك الموطر وهو يعمل طول هذه المدة ويتسمع له لكى ينتقد كل مخالفة فيه . كما أنه صار يقضى يومين كاملين بلا نوم . فلما تم له كل ما أراد سافر من كليفورنيا الى نيويورك والشقة بينهما طويلة .

فكانت تجربة أولية لشقه المحيط . فلما كان يوم ١٥ مايو سنة ١٩٢٧ قصد الى دار سينمائية لقضاء الامسية بعد أن اوصى مناوب الفندق بايقاظه فى الساعة ٢٫١٥ من الصباح . وكان ذهابه للتفرج برؤية القصة السينمائية برهانا على أنه قد أتم كل شىء وانه أراد أن يخلى باله من التفكير فى هذا الموضوع. وهذا يذكرنا بما قيل عن هيئة أركان الحرب الالمانية التى أعدت كل شىء حتى اذا كان يوم التحرك للجيش قصد أعضاء هذه الهيئة كل الى فراشه للنوم ثقة بأن النظام تام وهو كفيل بكل شىء

فلما كانت الساعة الرابعة من الصباح كان لندبرج عند طائرته والوف الناس قد احتشدوا حوله وكأنهم قد اجتمعوا لرؤية تنفيذ الحكم بالاعدام . فقد كان اعجابهم مشوبا بغصة اشفاقا على الشاب الجميل يقتحم المحيط الاطلنطى . ولذلك كان المتسمع الى هتافهم لا يتمالك من الشعور بانه مشوب بزفرة الاسف

وذهبت الام لتوديع الابن . ولكنها تركته قبل أن يركب الطائرة وكأن المسكينة عجزت عن مواجهة هذه اللحظة . ثم قصدت الى مدرستها وهناك طلبت من ناظر المدرسة الا يبلغها أحد شيئا سيئا أوحسنا عن ابنها ما دامت فى الدرس . وقضت اليوم وهى تتحدث عن الاحماض والقلويات ولايجسر واحد من التلاميذ أو المعلمين على أن يذكر اسم ابنها

هذا مافعلته الام . أما ما فعله الابن فانه قطع المسافة ووصل الى بورجيه فى فرنسا . فكان أول ما فكر فيه عندما وطئت قدماه الارض الثابتة ان قال : اخبروا أمى

وقليل من الناس من يبلغ ذروة الحياة وهو فى الخامسة والعشرين . ولكن هؤلاء القليلين هم الابطال .

وبعد ذلك لانعرف عن لندبرج الا أنه تزوج وان وغدا شريرا خطف ابنه وقتله . وقد اعدم هذا الوغد على الكرسى الكهربائى بعد محاكمة دامت سنوات . ولكن لندبرج لايزال طيارا مقحاما وقد طار فى الاقاليم الشمالية يبحث عن طريق حول القطب الشمالى يصل بين أوربا وأمريكا وآسيا ونعرف عنه أيضا أنه قد اشترك مع العالم الكسيس كاريل فى اختراع قلب صناعى يؤدى للانسان ما يؤديه القلب الطبيعى



زينيديا هيبياس « مدام ميرجكوفوفسكي »

زهرة التفاح

قصة روسية تأليف مدام ميركوفوسكي
وترجمة الدكتور صبري جرجس

— ١ —

« لم انشأتني بحيث لا استطيع الحياة دونها ؟ لقد فعلت هي ذلك ولست ملوما عليه »

كتبت هذه الكلمات وما أعجب ما أشعر به ! لكأني أتحدث عن امرأة أحبها ولكني لا أحب امرأة ما . أنها أمي التي ربتت ذلك بحيث احس انني أكاد أموت حاجة اليها . وأنت اذا آويت رجلا في الدفء طول حياته ثم تنكرت له فجأة ودفعت به الى الزمهرير فليس عجيبا أن يموت كما اموت أنا الآن

لقد كانت هذه الايام الاخيرة كبيرة المعنى عظيمة الدلالة بالنسبة لي . واني لاخال أنني وصلت الى شيء ما ... أو أنني انهيت نصف حياتي وما أدري بعد ذلك ماذا سيكون من أمر ما سيتبقى منها .. أأخطو فيها الى الامام ام اتراجع الى الخلف أم أقف حيث أنا ؟ أأرتفع صاعدا أم أهبط نازلا ... أم ماذا عسى أن يكون الامر ؟

أنني الآن في السابعة والعشرين من عمري ولكن احدا من الناس لن يصدق هذا ... فانا أبدو عجوزا ... بل اني اعلمه وأحسه في نفسي . لقد مرت على فترة من الزمان كان فيها وجهي جميلا وناعما مثل وجه أمي ، وكنا يومئذ ننظر الى المرآة سويا فنعجب لشدة التشابه بيننا . أما الآن فانها لن تعرفني لو رأتني ... ستنكر مني الظهر المنحني والعينين الباهتتين واللحية النامية والوجه الاصفر الداكن . وأحسبني سأموت عن قريب . لست أشكو مرضاً خاصا ولكني سائر الى الموت لان

الذى يحيا هو الذى يريد الحياة ..: نعم انها ارادة الحياة التى افتقدها فلا اجدها . عنـدما أدركت هذه الحقيقة فى الايام الاخيرة وأيقنت أنه ليس هنا ما ينتظرنى فى غدى خطر ببالى أن أقدم عـلى الانتحار ولـكننى تراجعت لانى اخشاه ..

أنا موسيقى ... لست موسيقياً عظيما ولـكننى موسيقى لا بأس به كما يقول الناس . وأنا احب الانفعالات والتأملات الهادئة التى تملأ القلب بألم حلو وتفيض على النفس بسكون عميق . وعنـدما كنت اشترك مع احدى الفرق فى العزف « وهذا منذ عهد غير قريب » كنت فى بعض الأحيان أسدد النظر الى احد الوجهاء من الجالسين فى الصف الاول فأسبح فى الخيال واقول كأنما اخاطبه « ها أنت تنظر الى مصغيا فى انتباه شديد ولـكن لو أننى بدلا من هذه القطعة عزفت اغنية روسية بسيطة تعيد الى خيالك ذكرى سنوات مضين منذ زمان بعيد وحديقة صغيرة تشيع الحرارة والدفء وعينين غريزتين — قد تكونان فى عالم النسيان الان — ، لو أننى فعلت ذلك لما استطعت ان تكبح عواطفك ولنهضت لتختلى الى دمعك فى مكان منعزل ونفسك تجيش بذلك الالم الحلو الذى لا تستطيع هذه القطعة التى أعزفها الآن ان تبعثه اليهـا ، وأنا اعلم أنك ستحاول أن تخفى ذلك الألم لانك تشعر بالخجل منه ، وستحسب أنك الوحيد الذى يشعر به وان الآخرين لا يشعرون ولا يقدرون ولـكنهم جميعا سيشعرون ويقدرون ويخجلون ، وكل منهم يحسب انه فى ذلك الوحيد » . ان لـكل انسان نقطة متوهجة لامعة فى ماضيه ، وان لى مثل هذه النقطة أيضا .

-- ٢ --

مما يبعث على الملل أن يبدأ المرء الحديث عن نفسه منذ البداية اى منذ اوائل الطفولة . ومع ذلك وأنا ارى ان حياتى فى سن العشرين لا تختلف عنهـا فى سن العاشرة ، ولعلى كنت فى سن العشرين أوفر سعادة لأنى كنت استطيع أن اخرج مع أمى وأن اسير معها جنبا الى جنب ويدى فى يدها فى حين أنى فى صباى كثيرا ماثرت وصخبت محتجا عليها لذهابها الى المسرح دونى ، وكنت أقول ان لاحق لها فى التمتع فى حين اقضى انا الوقت فى مراجعة دروسى ، فـكانت تتوسل إلى وترجونى الصفح عنها . ولـكننا لم نشتبك قط اذ لم يـكن لديها سواى ولم يكن عندى الاها .

ولم أكن اكلم والدى قط فانه كان رجلا عجوزا دائم الانشغال بعمله . وكان يقيم فى جناح خاص فى المنزل ولا يكاد يدرى بوجودى . أما أمى فكانت صغيرة السن دقيقة الجسم جميلة الهيئة ذات عينين سوداوين كبيرتين تبين عليهما النضرة وينبعث منهما ضوء متوهج . وكان يحوم حولها عطر غريب لم أعرف اسمه ولكنه كان يذكرنى بمطلع الربيع .

وكنا نقيم فى مدينة كبيرة من مدن الجنوب فى منزل جديد بناه ابى بنفسه ولكنه كان رطبا وغير مريح ؛ وكانت له حديقة صغيرة انيقة تحيط به من جميع نواحيه فكان يخيل الى اننى لا أستطيع أن أصل الى نهايتها .

ولم أذهب الى المدرسة قط لأن أمى لم ترض بذلك ، وكان لها أصدقاء كثيرون حاول بعضهم التقرب اليها ولكنى لا أظن انها شجعت أحداً منهم . وقد اختارت لى خير الأساتذة لتثقيفى بالمنزل وكانت فى بعض الأحيان تساعدنى على الاستذكار ولكنها فى الأغلب كان سريعة الملل قليلة الصبر على الكتب ، فكانت تطوى الكتاب بعد قليل وهى تقول « هيا بنا الى نزهة قصيرة يافولوريا » .

وكنا نخرج — أمى فى ثيابها الجميلة ، وأنا سعيد لأن لى مثل هذه الام الفاتنة التى كنت قريب الشبه لها — فنتنزه قليلا ثم نعود . ولم تتغير أمى كما لم يلح عليها تقدم السن فلم نلبث أن بدونا كأخ وأخته وخصوصا عندما أخذ شاربى يظهر ولحيتى تنبت . غير أن هذا لم يؤثر على احساسى الداخلى . وعندما بلغت العشرين أخذت أظهر ميلا جديا الى الموسيقى وبدأت أفكر فى الالتحاق بالمعهد الموسيقى «الكونسرفتوار» وكنت يومئذ قد جزت امتحاناتى بنجاح ولم يبق على الا أن أقرر على أى نهج سأسير .

وقالت أمى « من المحقق انك ستذهب الى الكونسرفتوار فى موسكو فيجب أن تسرع لانك أشرفت على العشرين الآن . ستكون شهيرا يوما ما وسترى أن نبؤتى هذه ستتحقق »

فكنت أجيب « ومتى سأذهب »

فتقول « فى الخريف فيما أظن .. فهل يرضيك هذا ؟ »

ولم يكن هناك بطبيعة الحال أى احتمال لذهابى دونها ، والا فمع من كنت سأتحدث ومن الذى يخرج للنزهة معى ؟

وكنت فى كثير من الأحيان أجلس فى غرفتها على الارض عند قدميها بجانب المدفأة كما اعتدت أن أجلس منذ كنت طفلا فاحدثها عن هذه الفتاة أو تلك ممن كن يحببننى وأصف لها كيف كنت أغازلهن واختارمنهن من كنت أفضلها على الاخريات . وكان يخيل لى يومئذ أن جميع الفتيات واقعات فى غرامى لجمال شكلى واجادتى العزف على البيانو .

وفى ذات يوم قالت لى أمى «أتعلم يافولوديا انك لاتشبه الرجال على الاطلاق وانك كالمرأة تماماً ؟ قد يكون هذا هو السبب فى اننا صديقان حميمان ولكننى أتساءل هل أعد نفسى مسئولة عن ذلك » ثم اردفت قائلة « انك لاتغشى مجالس الرجال قط وحين أجدك مع النساء لأراك تبدى من الاهتمام بمغازلتهن قدر ماتبدى من الاهتمام باظهار حسنك وجمالك . لست واثقة ولكن يخيل لى انك لوكنت غريباعنى لما أحببتك»

يومئذ تأذيت لهذا الكلام كثيرا ولكنى لم أدر ماذا يعنى . ألم تقل اننى قريب الشبه منها فلماذا اذن تظهر عدم الاهتمام بى ؟ واذا كنت غير جميل وأن اكون كالمرأة فلم لم تلتفت الى هذا من قبل ؟

وكأنما أدركت انها اساءتنى بهذا الكلام فمضت تتوسل الى طويلا كى أعفو عنها ، ولكننى لم أستطع أن أنسى كلماتها قط . وكنت بين الحين والآخر أقول لها « ان سيرومتنيكوف وميرمانوف قريبا الشبه من الرجال .. أليس كذلك ؟ ثم اليسا جديرين بان يقع جميع النساء فى حبهما ؟ فكانت تبتسم وهى تضع يدها الجميلة على فمى لاسكاتى .

وأصابنى شيئا من الزهو لذلك ، واستغرقتنى الرغبة القوية فى أن أبدو جميلا لكى أجذب أنظار الفتيات الى . ولكنى لم أقع فى شراك الغرام قط . صحيح انى شعرت بالميل لفتيات كثيرات ولكنى لم أحب احداهن . كنت نقيا حتى ذلك العهد كالقليل من الرجال ، ولكننى فى تفكيرى لم أكن خيرا من غيرى

— ٣ —

لم اكن كثير الاهتمام بالمطالعة الا قبيل الامتحان حين كنت أضطر الى القراءة والاستذكار وبعد الفراغ من الامتحان تحول اهتمامى الى الموسيقى التى كانت وحدها هى التى تستطيع أن تهز

نفسي وتجعلني أنسى مالم أكن انساه لولاها .

وأخيرا ذهبنا الى موسكو ، وقد كنت جذلا لذلك لأنني أدركت بالبديهة ان تغييرا ما لا بد أن يقع .

واقمنا فى منزل استأجرناه فى مالايانيكتسكايا ، وعشنا معا كصديقين حميمين . وسرعان ما ظهر فى سماء حياتنا أصدقاء جدد ولكنهم لم يستطيعوا أن يؤثروا على توثق مودتنا ، وصرفني العمل بعض الشيء عن ملازمة أمي على الدوام كما كان الحال من قبل .

وفى المعهد لم يكن لى من الاصدقاء غير أستاذى الذى كان لايزال شابا حديث السن . وقد قال انني غريب الاطوار ولكن المستقبل امامى يبشر بالخير والازدهار ، ولم يستطع أن يفهمني تمام الفهم الا حين جاء معى الى المنزل وقدمته الى أمي . فقد كان من المستحيل أن يفهمني وأحدنا بعيد عن الآخر ، وكان ينبغي أن نكون معا لنكون وحدة كاملة .

وذات يوم قال لى استاذى « أصغ أيها الشاب : يجب أن تعمل وتجد . شيء مايجب أنلايخرج عنك والا فسترى نفسك ضائعاً »

فكانت هذه الكلمة حافزا لى على مضاعفة الجهد والاستغراق فى العمل حتى نسيت الكسل والخمول وأهملت العناية بشعرى وملابسي وانقطعت عن الخروج من المنزل إلا قليلا ولطالما كنت أحب التطلع الى السماء الزرقاء والأرض والازهار التى لم أكن أحب سواها . وكانت أمي تعزيني كثيرا ولكنني كنت أشعر اننا فى هذه الناحية مختلفين جد الاختلاف ، فانها لم تكن تهتم حتى بالعناية بحديقتنا وكانت تفضل السير فى الطرقات عن التجوال فيها وتقول ان أشعة الشمس اكثر تهدئة للأعصاب داخل المنزل منها خارجه وان عطورها الخاصة خير من روائح الربيع .

عندما كنت أذكر هذا فى فترات عارضة كان يخيل لى انها لم تعد صغيرة بعد واننا لا يمكن أن نبقى صديقين كما كنا .. كان هناك حجاب مايفصل بيننا .. ولكنها كانت فترات عارضة وحسب .

لقد قلت انني لم اكن ذا أصدقاء واعني بذلك الاصدقاء الحميمين ، ولكن كان لى معارف كثيرون وكنا نخرج فى رحلات صاخبة لبعض المناسبات أقضى فيها الليل خارج المنزل

وكانت أمي تسألني فى استطلاع وفضول ولكنها لم توجه الى كلمة عتاب قط . وقد ضايقني

هذا فكنت أقص عليها التفاصيل بشيء من الاشمئزاز والكبرياء وكانت تعقب بقولها « هذا أمر لايهم يافلوريا .. لقد كنت واثقة من أنه وشيك الحصول ولكن ينبغي الا تنساني . أتفهم ؟ ينبغي أن يكون لي المقام الأول عندك كما ان لك المقام الاول عندي . أتفهم ؟ من المستحيل أن نحيا على غير هذه الحال . أتفهم ؟

فكنت ابتسم واحوطها بذراعي وانا أقول لنفسي : من عساه يمكن أن يحتل المقام الاول عندي سواها ؟ ان هذا من المستحيلات

ـ ٤ ـ

ومرت على ذلك سنوات وانهيت دراستي في المعهد ثم عملت بعد ذلك في بعض الفرق ولكني لم أكن سعيدا لانني لم أجد ما يشبع ظمأ نفسي في تلك الاغنيات الصاخبة التي كانت أصابعي تتحرك فيها على الاوتار بما يحمل الى عبارات الثناء والاعجاب : وكثيرا ما كنت أفكر متى سأستطيع ان أعزف أغنية طالما سمعتها وعصاني ترديدها . يوم أوفق الى ذلك سيتغير كل شيء في حياتي وسأشعر بنفس الانفعالات التي يجيش بها صدور المستمعين الى . سنبكي معا لان الاغنية ستنفذ الى أعماقنا وتهز مشاعرنا . نعم سنبكي معاً ... وبعدئذ ... ليس يعنيني ماذا سيكون من الامر بعدئذ ... حتى الموت لن يعنيني . لقد كنت واثقاً من أنه لن يحدث شيء ما طالما أن نفسي لم يحركها أنفعال قوي وكنت اوقن أنه لو جاءني هذا الشيء الذي يصيب الناس جميعا لا ستطعت أن « أتحدث » اليهم ... فان العزف في هذه الحالة يصير نوعاً من الحديث العقلي

وقد اضطرت أمي الى العودة الى منزلنا مرتين تركتني في خلالهما بضعة أسابيع فاصبت بصدمة اضاعت مني القدرة على العمل وافقدتني شهية الطعام وأحاطتني بنوع من الفزع المروع خلت معه أنني أحيا في هذه الدنيا المترامية الاطراف وحيدا ، وشعرت كأنما أمي ليست معي يومئذ وكأنما لم تكن معي يوما ما قط . ولعل هذا الخاطر الاخير هو الذي ضاعف من فزعي ؛ فقد حسبت أنه يعني أنها لن تكون معي بعد ذلك على الاطلاق .

لم ربطتني اليها في هذه الصلة المحكمة بحيث جعلت الحياة دونها أمرا مستحيلا ؟ من اللغو أن

يقال انني كنت أحبها فانا لا أحب الهواء والطعام ومع ذلك لا أستطيع الحياة دونهما ... انني شخص ضعيف ... بلغ الغاية من الضعف ... وليس عندى من القوة ما يعينني على بذل أى جهد للتخفيف من وطأة هذه الآلام التى كانت تغتال نفسى وتنالها بأقسى الوان العذاب

وفى العام الماضى بينما كنت لا أزال فى موسكو مرض أبى فاضطرت أمى الى الرحيل قبيل عيد الميلاد وفى الايام الاخيرة من يناير مرضت أنا فانقطعت عن العمل وسافرت وقضيت سنة كاملة بين البطالة والعطالة ـ ولكن ماذا يعنيني من هذا ؟ هل كنت استطيع العمل بغير أمى ؟ فى مساء وصولى قضيت الليل كله جالسا على مقعد فى مخدعها صامتاً ... كنت أشعر أنها فرحة لوجودى فانها لم تكن تستطيع الحياة بدونى كما لم أكن استطيع الحياة بدونها

ـ ٥ ـ

فى الايام التى قضيتها بمنزلنا كنت أمضى الساعات الطوال فى العزف وكانت لى غرفة خاصة بها نافذة صغيرة تواجه الحديقة فوضعت البيانو الى جانبها حتى أستطيع النظر الى السماء والاشجار وأنا أعزف ـ

وفى أواسط فبراير بدأ الجو يدفأ فكنت أسير فى الحديقة وأحملق فى السماء الزرقاء التى تظهر من خلال فروع اشجار التفاح والكريز ـ وبدأت التلال البعيدة تكتسى بلون اصفر ... اصفر لا أخضر من البرسيم النابت فيها ، فان البرسيم فى اول عهده بالظهور يكون من النضارة بحيث يبدو ذا لون أصفر وكنت أحب زهرته الصغيرة الدقيقة ـ لم يا أمى لم تخرجى الى الحديقة لنسير معاً فيها ؟ ولم لم تحبى ما كنت أحب ؟ لقد شعرت يومئذ بسحابة باردة تحوم حول قلبى وتفصلنى عنها ـ

وكلما تقدم الربيع زدت احساسا بالسعادة وأطلت من الجلوس فى الحديقة وقوى شعورى بأننى أنمو معأزهارها ـ وتركت موسيقاى الى حين لأننى شعرت بشىء يتحرك فى أعماق نفسى ـ شىء أبهى وأجمل من الموسيقى ـ لقد بحثت عنه طويلا ولكننى لم استطع الوصول اليه ... كان قريبا منى وكنت أحس وجوده فى أصوات الربيع وعطوره ... ولكن ما أبعده عنى الان !

و ذات يوم كنت جالساً فى مقعد منخفض فى نهاية طريق ضيق رطب الى جانب سياج الحديقة ، ولم يكن يضيرنى ان لها هذا السياج الذى يحدها عن الامتداد الى ما لا نهاية لاننى كنت أرى الاشجار حيثما اجلت البصر وكنت أرى الحشائش والارض والسماء فى كل مكان - فلن يعنينى بعد ذلك أن تكون هذه الاشجار ملكا لى أو ملكا لسواى ، وحسبها أنها تدخل السرور على نفسى لاشعر بانها لى . بل لقد كنت اشعر ان تلك التلال المتعرجة ذات الظلال الزرقاء الداكنة فى مرمى الافق البعيد لى ايضاً .

وكانت الشمس تميل الى الغروب واشعتها تفقد حرارتها تدريجيا فشعرت باننى ينبغى ان اعود الى المنزل ولكننى لم استطع الحراك . وفجأة احسست بان شخصا ما قادم نحوى من الخلف فى خفة لم اكد اسمع معها حركته .فاجلت النظر حولى وادركت ان القادم يسير فى الحديقة المجاورة .وكنت استطيع ان انهض لارى من عساه يكون ولكنى قلت لنفسى «وماذا يعنينى من امره .. ليكن هو من يكون فانه لا يستحق مشقة القيام» . وكان هواء الربيع قد انهكنى فكنت احس باشد الحاجة الى اغفاءة قصيرة فى هذا الجو من السكون المطلق .

وانقطع الصوت ثم عاد مرة اخرى ثم انقطع . ورفعت عينى فرأيت وجها يتفرس فى بصرامة وغضب ثم ببرود وعدم اكتراث ، ورأيت فى الجانب الآخر من السياج فتاة لا اعرفها . نظر كلانا الى الآخر برهة وهو صامت . وحسبت انها ستمضى فى طريقها على التو ولكنها تكلمت فقالت «اسعدت مساء . لقد رأيتك هنا مرارا كثيرة فلم تجلس فى هذا المكان دائما ؟ »

فاجبت فى خجل وكأنما كنت اعتذر «لانى احبه .. ولكننى لم ارك قط»

«لانى كنت اراك من بعيد .. اننى اقيم فى هذا المنزل» ثم اشارت الى منزل تكاد الاشجار تحجبه عن العيان .

وعندما حركت ذراعها لاحظت لاول مرة ان ملابسها غريبة .. تختلف عن الملابس التى ترتديها الفتيات العاديات . وقد خلتها فى اول الامر ذاهبة الى احدى الحفلات التنكرية ولكن الواقع ان ملابسها تستلفت النظر ببساطتها فقد كانت ترتدى جلبابا فضفاضاً من قماش ابيض ذا حزام احمر وذيل طويل واكمام تكاد تغطى اصابعها .

وسألتها «لم ترتدين هذا الثوب الغريب ؟»

فلم يبد عليها انها دهشت لهذا السؤال واجابت قائلة «لانه يريحني . وطالما لا يراني احد فاني احب ان ارتدى ما اشاء»

« انه على اى حال يعجبني . ما اسمك ؟ »

«مارتا» «مارتا ؟ الست روسية ؟ »

«طبعا ، واسم الاسرة كورينيفا ـ وأنا اقيم هنا مع امى . الم تسمع عنها ؟ مدام كورينيفا المليونيرة الغريرة»

فتذكرت على الفور انني سمعت شيئا عن مدام كورينيفا المليونيرة الغريرة وابنتها الصغيرة التى كانت منصرفة الى دروسها ومنقطعة عن الخروج .

واجبتها فى بطء وتثاقل «نعم سمعت . من العجيب ان نكون جيرانا ثم تكون هذه هى مقابلتنا الاولى»

فقالت مسرعة «اننى لا احب الخروج ـ يظهر انك دهشت لاسم مارتا ـ ان اسمى الحقيقى هو مارثا ـ ولكنى احب ان انادى بمارتا لانه اسم جميل » .

وقلت فى تفكير كأنما اخاطب نفسى «انت جميلة جدا »

قالت فى بساطة «اصحيح هذا ؟ يخال لى انه صحيح وان كان بعض الناس يقولون انى لست جميلة واعتقد ان هؤلاء يفهمون » .

لم يثر هذا الحديث شيئا من الدهشة الى نفسى لاننى لم استطع ان ادرك ان مارتا فتاة وان عبارتى لها مديح واطراء . ولكنى كنت اراها جميلة كالسماء التى تبدو من خلال الاشجار وكالنسيم الهادىء العليل كالسحاب الاحمر الخفيف الذى يحوط قرص الشمس وهو موشك على الغروب كنت اراها متناسقة مع كل ظواهر الساعة . ولم تكن بى رغبة خاصة الى الحديث او الى الدهشة ولكنى كنت اريد ان استمتع باللحظة التى انا فيها الى آخر حدود الاستمتاع .

وامتد بيننا صمت قصير قطعته بقولها « اسعدت مساء» ثم اردفت قائلة فى شىء من الكبرياء المصحوب بالتلطف «ويمكنك ان تحضر الى هذا المكان»

ثم سارت فسمعت مرة اخرى حفيف ثوبها على الارض - لم تدهشنى كلماتها لان خواطرها كانت هى عين مايجول بخاطرى - ان المرء ليعجب فقط من الامور الغريبة عليه الخارجة عنه ، اما الامور التى يعرفها ويحسها فليست تدعو الى الدهشة والعجب -

لبثت بقية المساء فى حالة غريبة ، حاولت أن أعزف ولكن صوت البيانو اثارنى . وذهبت لألقى تحية المساء على أمى ولكنى لم أذكر لها حرفا مما حدث . ولأول مرة فى حياتى لم توح عطورها الى نفسى رائحة الربيع الحقيقى .

— ٦ —

لم أذهب الى الحديقة منذ يومين

ولم اكن أعلم مم كنت أخاف . لعلى خشيت الا تكون المقابلة التالية فى بهجة الاولى فاردت أن أحتفظ بذكراها صافية غير مشوبة . وقد لاحظت أمى مرارا متعددة شحوب وجهى وانصرافى عن العزف . وكان أبى لايزال ملازما الفراش فانشغلت أمى الى العناية به من الاهتمام بامرى .

«ماذا بك يافولوريا ؟ أنخرج الى النزهة معاً الليلة»

فكانت اجابتى متراخية وتهربت منها بالقول اننى لا أحب السير فى الطرقات

وفى اليوم الثالث انتهيت الى رأى شأن ذوى الارادة الضعيفة فارتديت قبعتى مسرعا وذهبت الى الحديقة وأنا أعتزم أمراً .

ولم اكد أجاس حتى سمعت صوت الحفيف ورأيت مارتا عند السياج .

بادرتنى بالتحية قائلة « أسعدت مساء »

فنهضت واقتربت منها . كانت ترتدى نفس الجلباب ، غير أن الحزام كان ذا لون ذهبى بدلا من اللون الاحمر .

واردفت قائلة « لم لم تأت ؟. ألم أقل أنه يمكنك الحضور . ومع ذلك فانا أعلم السبب فى تخلفك»

«وما هو ؟» «هذا لا يهم كثيرا .. ولكنى أعرف»

أكانت أشعة الشمس التى انحدرت عليها أم كان وحى خيالى هو الذى جعلنى أرى رداءها مشربا

بحمرة خفيفة كتلك التى نراها فى زهر التفاح ؟

كان لمارتا وجه عجيب لاأستطيع ان أصفه تماما ، وقصارى ما أستطيع أن أقوله عنه انه كان خاليا من أى خفاء أو غموض . وقد خيل الى أن شعرها الذى كان معقودا من الخلف فى عقدة واحدة قد اختلط بسواد الجو المحيط به . وكان وجهها مستديرا وشاحبا ودقيقا ، وكانت عيناها شفافتين كالماء النقى ولكنى لاأستطيع أن أذكر لونهما وان كنت اخاله أقرب الى السواد

اننى أذكر كل وحدة من ملامح وجهها على حدة : جبينها المستقيم وشفتيها الحمراوين المضغوطتين .. ، ولكنى لا استطيع أن أذكر تفاصيل الوجه عموماً .

وقالت مارتا « اننى أعرف أين تغرب الشمس كل يوم .. فان هذه هى أيامى .. أيامى .. «ثم تابعت حديثها قائلة « أتريد أن تعرف ماذا سيصيب الحديقة من التغيير فى الغد ؟ أتريد أن أقول لك فى أى يوم ستزدهر أشجار التفاح ؟»

«وانى لك معرفة هذا ؟»

«اننى أستطيع أن أعرف كل شىء عن الحديقة وعن الربيع وعن الشمس وعن الازهار لأ ننى أحبها جميعا »

والواقع انى شعرت بل ايقنت انها تعرف كل شىء مما تقول

«بم تظن أن شجرة الصمغ التى تراها هناك تشعر الآن »

« تشعر بالفرح » « وأى فرح ! »

« نفس الفرح الذى تشعرين به أنت وأشعر به أنا .. الفرح من الشمس »

« نعم اننا جميعا نفرح بهذا .. جميعا »

ثم أضافت بعد فترة « فى بعض الاحيان أسمعك تعزف .. وأنا أحب أن أسمع العزف من هذا المكان لانه يفقد خشونته»

فتذكرت على التو انى كنت أسمع صوت البيانو خشنا فى الايام الاخيرة .

ومضت مارتا فى حديثها قائلة « انك لن تغضب منى ولكنك فى بعض الاحيان تعرف أدوارا صعبة متنوعة النغم ، وليس هذا ما يوافقك . ينبغى أن تنصرف عما يراه الناس وتصغى هنا ، ثم أشاحت

بيدها فى الهواء وهى تقول « هنا حيث تنسجم الحياة مع طبيعتك »

ووقفت عن الحديث كأنها تجد شيئا من العسر فى ايضاح ما تعنيه . ولكننى بطبيعة الحال ادركت كل شيء على الفور .

وقلت « لقد كنت على هذا الرأى دائما ويسرنى أنك تشاطريننى إياه . لا بد ان يكون صائبا إذن » .

«ألا تستطيع ان تعزف شيئا أقل سرعة وأكثر سهولة ؟ لقد سمعت ذات يوم أغنية تعزفها إحدى الفرق ولكن بغير الطريقة التى أحبها . انها تبدأ «لا كلام ياصديقى ولا تنهد » لست أعرف الغناء ولكننى سأغنيها لك لأدلك على طريقتها » .

وبدأت فى الغناء كأنها تتحدث،وكان صوتها ناعما حتى اننى طلبت منها أن تعيدها مرة أخرى وقالت حتى كلماتها تبدو جميلةولكننى لا أفهم معناها حتى الآن . »

ثم قالت مرة أخرى«ان هذه هى أيامى ... فاذا مضى الربيع . »

ثم تهدج صوتها . وفجأة خطر لى اننى لم أرها تبتسم قط فسألتها «ألا تبتسمين قطيامارتا؟ »

فأجابت بشيء من الكآبة « ان الشمس تغيب الآن وأنا أضحك فى الصباح فقط » .

اننى لا أذكر الان وانا جالس فى منزلى بمدينة بتروغراد اتذكر كلمات ذلك الحادث فاخاله لم يقع قط ولا أراه خليقا ان يقع . أكن حلما من الاحلام ؟ كلا ، لم يكن حلما لان ما أعقبه بعد ذلك لم يكن حلما وانما كان حقيقة مرة مروعة ادفع حياتى فى سبيلها .

فى ذلك المساء بعد لقائى الثانى لمارتا آويت الى غرفتى وأطفأت المشاعل وفتحت النافذة وجلست الى البيانو . حاولت أن اذكر نغمة الاغنية التى غنتها مارتا ... كانت نغمة حلوة هادئة سهلة فجعلت اعيدها المرة بعد الاخرى . ولست أدرى ماذا دهانى ولكننى كنت أحس بشعور غريب يملأ نفسى فتركت البيانو وتوجهت الى النافذة اطل منها، ثم فتحت الباب على غير وعى منى وهبطت الدرج المظلم فاذا بى أجد نفسى فى الحديقة .

كان ضوء الحديقة أشد من ضوء الغرفة وكان بها ضباب خفيف ، وكان القمر الجديد قد غرب فلم يبق فى صفحة السماء غير النجوم

وفى نهاية الطريق استطعت أن ألمح ثوب مارتا الابيض فقد كنت واثقا من انها هناك .. تصغى

وهمست عندما اقتربت منهــا قائلة « لاتتكلم بصوت مرتفع . لقد كنت اترقب حضورك الآن . اريد أن أطلب منك شيئا واحدا لا تأت الى الحـديقة غدا ولكن تعالى بعد غـد عند غروب الشمس وتأهب لجلسة طويلة . بعد غد تكون براعم التفـاح قد نضجت واوشكت على الازدهار .. سنراها وهى تزهر ... سنراها ... ستحضر ... أليس كذلك »

فهمست قائلا « أجل سأحضر »

فهزت رأسها ارتياحا وسارت واختفت بين الظلام والاشجار

وبقيت أنا حيث كنت وحيدا

— ٧ —

فى اليوم التالى صحوت متأخرا وذهبت بكسل وتثاقـل الى غرفة المائدة لاتناول قهوة الصباح وقد بقيت اليوم طوله انتقل من غرفـة الى غرفـة دون أن تكون عندى أى رغبة للقيام بعمل ما . وتحاشيت النزول الى الحديقة كما طلبت مارتا منى .

وكنت أشعر برغبة قوية فى التوجه الى أمى والجلوس بجانبهـا فى صمت ... فقد كان يعتريني شىء من القلق يومئذ ــ كأنى فقدت شيئا . ولعل هذا راجع الى انى لم أر أمى كثيرا فى تلك الاثناء ولم يكن فى عزمى ان اطلعها على شىء مما مر بى فقد كان الامر كله يتعلق بالحديقة وهى لم تكن تحبها اوتعنى بها . ولكن أمى كانت لازمة لى كنفسى . لم ادرك الا يومئذ انها لم تكن تشعر كما اشعر ولم تكن تحس بنفس الأمور التى أحس بها . ترى لماذا خدعتني هذه المدة الطويلة ؟ ولماذا انشأتنى بحيث لا استطيع الحياة دونها ؟

وجلست الى العشاء شاحب اللون منهوك القوى فاقد الشهية . وشعرت بعينين تحدقان النظر الى فتلفت واذا بى أرى امى تصوب الى بعينيها السوداوين نظرة اجتمع فيهما من الغضب والكراهة ما جعلنى ارتعد خوفا وفزعا . أ كنت فى حلم ؟ أكـان هذا من نسج الخيال ؟ لقد خلت كـأن حملا ثقيلا يجثم فوق صدرى حينذاك ثم خلت كأن جسمى ينكمش ويتضاءل

نهضت على التو وذهبت الى مخدع أمى ولكنها لم تكن هناك ، فانتظرت لانى كنت واثقا من حضورها وجاءت ولكنها لم تنظر الى بل جلست فى مقعد كبير فى صمت مطبق . ولبثت أنا أيضا فى صمتى اتعذب

واخيرا قالت « أنى أعرف كل شىء يافولوريا »

وشعرت بقليل من الراحة عندما سمعت صوتها ولكننى لم استطع فهم كلماتها فقلت بشىء من الجهد « ماذا ؟ »

قالت « انا أعرف كل شىء . انت تحب . يقول بعض الناس أن هذا أمر لا محيص أن يقع ولكنه بالنسبة لك مستحيل . لن يكون لانى لن اسمح به . لقد حاولت جهدى ولن أدعك تفلت منى » .

كان موقفى من هذه الثورة الجنونية موقف اليائس المطلق . لقد أخافنى غضبها ولكنى لم اشعر بشىء من الشفقة عليها .

وأخيرا قلت « ماذا تقصدين ؟ اننى لا أستطيع أن أفهمك »

فهدأت قليلا وقالت « انت تحب مارتا كور ينيفا واعلم أنك تقابلها فى الحديقة ، وقد أذهلتك هذه الحالة عن امرك فهل تريد أن تتزوجها . لا بد لى اذن من ان اخبرك ان الفتاة التى وقع أختيارك عليها فتاة شاذة فاسدة منذ الطفولة ، وهى اما أن تكون مجنونة او على قدر كبير من المهارة فاحذر . كان ينبغى أن تطلعنى على هذا الامر ولكنى علمته برغم اخفائه عنى »

كانت افكارى فى حالة اضطراب شديد ، وعصانى لسانى فلم استطع النطق ، أنا أحب مارتا ! هذا مستحيل . وأنا أريد التزوج منها ! انا أتزوج ايجب أن يكون أحدنا مجنونا أو لعلنا جميعا ذوو جنة . اخذت اهذى ببضع كلمات مضطربة وانا لا أكاد ادرى ماذا اقول . . تحدثت عن الحديقة وعن الربيع وعن اشجار التفاح وعن مارتا فقلت أنها حديقة حية بالنسبة لى وعن الجو والريح . وفى يأسى أدركت أن أمى لن تستطيع ان تفهمنى الا اذا شعرت بمثل ما أشعر به

ثم بدأ يتخللنى خوف غريزى ناتج من الاحساس بالوحدة ، فقد شعرت فى تلك اللحظة ان أمى هجرتنى وأنها تكرهنى وانى لا أستطيع أن احيا وحيداً . ولم أكن لاتردد عن الكذب

لو أستطعته او أنه كان يفيدني ، ولـكنني لم أكذب من قبل قط . ولعل أمي أدركت مقدار ما أقاسيه من الألم والعذاب فقالت « ارى انك لم تنتظر شيئا من هذا كله ولـكن يجب أن تذكر يافولوريا ان العلاقة بيننا ليس من شأنها أن تجعلني أقف منك موقفا سلبيا . لقد اعطيتك حياتي كلها فيجب أن تعطيني حياتك أيضا . حياتك كلها . هذا ما قصدت اليه : لم أترك قط وجعلتك نفسي ولنفسي . قد أكون مخطئة في هذا العمل ولـكن هذا لا يعنيني . أنه حق وعدل . كما انى لا أستطيع لتضحية بذاتي الآن . ومهما يكن من حبك لزوجتك أو عشيقتك ومهما يكن من حبها لك فانت لن تستطيع الحياة دوني .

قالت هذه الكلمات ثم نهضت فاقتربت منها واحطتها بذراعي واحدقت النظر في عينيها ثم قلت لها « حسبك هذا العذاب . فانا اعلم انى ملك لك وانى لا استطيع الحياة بدونك ، وانا لا اريد ان اتزوج لانى لا أحب احدا .. لا استطيع .. لم أفهم .. انها الحديقة والأزهار التي تعنيني .. والموسيقى .. عفوك ورضاك »

فضمتني اليها وهي تقول « يجب أن تعدني الا تذهب الى الحديقة أو ترى مارتا مرة أخرى . أنك لم تحبها بعد ولـكن ... لا تقاطعني ... انى أشعر بان هذا مستحيل ... انت ضعيف الارادة ياعزيزي بحيث لا تستطيع أن تحفظ عهدك ... فاحفظه ليوم واحد فقط ... لغد ... وبعد غد في الصباح المبكر سنرحل »

لغد .. غدا ستزدهر براعم التفاح !

« مالك لا تتكلم ؟ الا تريد ان تعدني حتى بهذا ؟ »

ثم عقدت حاجبيها .

ودعتها ثم انفجرت باكيا منتحبا ... لقد كنت أحب الازهار وها أنذا سأتخلى عنها لاجلها وكنت اشعر — وان كنت لا ادري لماذا — أنه من المستحيل على بعد ذلك أن أذهب .

— ٨ —

بدأنا نتأهب للرحيل منذ الصباح . وكان ابي لا يزال مريضا ولا غنى له عن عناية المربية

فقامت أمي بالمهمة كلها - أما أنا فقد كنت كالأموات وجلست طول اليوم مغمض العينين - وقد اقتحمت اشعة الشمس غرفتي من النافذة وغمرتني بدفئها ولكنني ارتعدت منها فقمت الى «الشيش» واغلقته لانها لم تعد شمسا بعد

ومرت الساعات وكان الألم الذي يحز في نفسي الما ثقيلا متصلا، وكان على أن احتمله مادمت لا أملك القدرة على الاختيار او العزم

وعند الغروب اردت الى أذهب الى أمي لكي تضمني اليها فاغمض بين ذراعيها عيني وأفقد الاحساس بالوقت -

وذهبت الى غرفة الاستقبال ونظرت من النافذة - كان قرص الشمس لايزال كبيرا ومستديرا ومتوهجا ويميل الى الانحدار وراء الافق ... لم احتمل رؤية هذا المنظر فأسرعت أعدو الى غرفة أمي على أجدها ولكنها لم تكن هناك - وفي الممر الخارجي قابلت احدى الخادمات وسألتها عنها فقالت : لقد خرجت المدام لتعد عربة لرحلة الغد وطلبت مني أن أبلغك ياسيدي بانها ستذهب بعد ذلك الى أسرة بولوتسكى - وستتأخر في العودة ، فاذا وجدت نفسك في حالة حسنة تسمح بالخروج فهي تريدك أن تلحق بها هناك في الساعة التاسعة ... والا فانها تريدك أن تذهب الى النوم مبكرا ..

لم استطع الانتظار حتى تفرغ الخادمة من رسالتها .. كان هذا اكثر مما يسعه الاحتمال وكنت في تلك اللحظة حائرا بين عهدي لامي وبين رغبتي في الذهاب الى الحديقة لكي استمتع بالربيع واستمع الى اشجار التفاح في نجواها - وانا دائما اذعن بغير مقاومة لما هو اقوى مني ، ولذلك فليس عجيبا ان يحدث ما لابد انه واقع يوما ما - نظرت الى قرص الشمس مرة اخرى بابتسامه ذابلة ، وبدون تردد اونظر الى الخلف اسرعت الى الحديقة -

- ٩ -

بعد ان اغلقت الباب خلفي وسرت بضع خطوات بين الاشجار عدت الى نفسي فجأة ونسيت كل شيء - وكل لحظة مرت بعد ذلك زادت من ارتياحي وضاعفت سروري - فقد خلت نفسي

اسير بين اصدقائى وخجلت اذ تذكرت انى تخليت عنهم هذه المدة الطويلة . وتنبهت فجأة فاذا بى اجد نفسى فى نهاية الطريق

كانت مارتا هناك على المقعد لا فى الجانب الآخر من السياج كما اعتادت ان تكون . وكانت جالسة ويديها مطبقتين على ركبتيها وهى تصوب الى نظرة حادة .

قلت «انا آسف يامارتا ، لقد غربت الشمس»

«لم تغرب بعد ، انها وراء التل لا وراء الافق »

جلست الى جانبها وكانت اكثر شحوبا من المعتاد . وثوبها .. لن اخطئه هذه المرة لم يكن ابيض اللون كما كنت اخاله بل كان مشوبا بحمرة خفيفة .

وقالت مارتا «يجب ان تنتظر .. ستزدهر الليلة .. اتستطيع ان تلاحظ شدة بياض القمر ؟ انه يظهر كسحابة صغيرة ولكنه حين يزيد لمعانا ويرتفع فى الجو» .

وسألتها قائلا «ما الذى يجعلك مثل هذا يامارتا ؟ .. اننى اخالك واحدة منها»

«وانت ايضا ؟ اننى واثقة من ذلك . وهذا هو السبب فى اننى مسرورة من وجودك معى .. وهو السبب ايضا فى اننى احبك»

فقلت «وانا ايضا احبك يامارتا .. احبك كما احب الحديقة .. ككل شيء»

فاعادت عبارتى الاخيرة بنغمة حزينة «نعم . ككل شيء»

ومرت فترة الظلام ثم ارسل القمر اشعته الباهته على الطريق فى تردد وخجل واشتدت الرائحة المنبعثة من الارض ورسمت اشجار التفاح ظلها بوضوح عليها ، وبدأ كل شيء يبدو كأنه يتمتم ويتحرك بعد ان ظل ساكنا صامتا حتى تلك اللحظة ، وخلت ان ضبابا خفيفا قد غشى ضوء القمر وهو يرتفع فى السماء .

وانتابنى شعور قوى من الخوف فلبثت اترقب وانا سابح فى تأملاتى . ولم تنظر مارتا الى وكان جسمها يشعر بالبرودة .

وتحركت نحوى قليلا . ووجدت نفسى احوطها بذراعى دون ان ادرى ، ولعلى فعلت هذا لمجرد رغبتى فى ان اكون قريبا منها .

وقالت وهى تضع يدها البيضاء فى يدى «لنحتفظ بالهدوء المطلق ولنبتعد عن الهياج -- لننتظر فى سكون تام فبغير سكينة القلب لاتستطيع ان تكون قريبا منها»

وادركت انها تعنى الطبيعة

واردفت مسرعة وهى تنظر فى عينى «ويجب ان نكون قريبين على الدوام -- انت وانا معها» لم اشعر قط بانى «معها» كما شعرت تلك اللحظة -- وكانت هى السعادة بعينها لو انها تدوم - ثم شممنا رائحة خفيفة جديدة -- احسسناها معا وأدركنا فى لحظة من اين جاءت

وقالت مارتا «ان البرعمة الاولى قد تفتحت -- لاتنظر اليها الان بل انتظر حتى يتفتح غيرها» وكان حديثها همسا فضممتها الى واردت ان اتكلم ولكنها تمتمت قائلة« ولا كلمة» - فسكت ، وسرنى هذا السكوت - لم ارد شيئا اكثر من هذا .. انه كان السعادة بعينها -

ثم جاءت رائحة جديدة -- رائحة قوية ملأ عبيرها ارجاء الحديقة - وهبط القمر وآذن بالزوال -- ولكن اشجار التفاح بقيت على نورها

وفى اللحظة التى بدا فيهـا كل ماحولنا واضحا وانشق الفجر نظرت الى وجه مارتا . . كانت جالسة كما كانت منذ بدأنا وقد احتضنتها الى .. فرفعت عينيها نحوى وقالت « لقد أزف الوقت .. ستشرق الشمس عما قليل وستزدهر أشجار التفاح »

وأحسست بضربة موجعة تصيب قلبى .. لقد ذكرت كل شىء فعرانى الشحوب وبدا على الخوف والارتياع .

ونظرت مارتا الى فى قلق وهى تقول «ماذا بك ؟»

قلت «لست سعيدا يامارتا .. رحماك .. يجب أن أذهب»

فقالت فى بطء دون أن تبدو عليها الدهشة «أتذهب ؟ الآن ؟ انتظر قليلا -- لاداعى للعجلة - انتظر حتى تبدأ الأزهار فى السقوط »

«لا أستطيع -- لا أستطيع --- لست أنا ولكنهم يريدوننى»

فقالت بهدوء «يريدك آخرون ؟ ان هؤلاء الآخرين يفسدون كل شىء دائما -- لا تكن شقيا اذهب وان كنت لاأريدك أن ترحل الآن »

فنظرت الى عينيهـا فى يأس :ـ. كانتا منفرجتين وفيهما هدوء ولـكنهما مغرورقتان بالدموع ـ لو أنها حركتها لتساقط الدمع منها ـ

ونهضت انا ولـكنها ظلت جالسة حيث هى دون أن تنظر الى

«الى اللقاء» «الى اللقاء ..لاتنسى »

«أنسى ماذا ؟» «كل شيء .. اننا نعرف الآن كيف نعيش »

« والآخرون يا مارتا »

« نعم الآخرون .. ولكن الا تقدر ؟ ألا تستطيع؟ ولكنك لن تنسى .. لن تنسىء اليس كذلك؟

نظرت اليها .. ثم الى السماء وقد ظهرت تماما الآن .. ثم الى أشجار التفـاح وقد بدت كأنما يغطيها زغب الثلج

قلت : لن أنسى يامارتا ... والى اللقاء ..

فهزت رأسها وسرت أنا فى طريق

-١٠-

ماحدث بعد ذلك سأرويه باقتضاب لأن ذكره بالتفصيل يؤلمنى أشـد الالم ـ أرادت أمى أن تثأر لنفسها .. وأعترف لقد بدا عليهـا التعب والهزال والشحوب فى تلك الليلة ولـكن ذلك أعزوه — فى يقينى — الى الـكراهة الشديدة التى فاضت نفسها بها نحوى ـ كنت أعلم أنها لن تصفح عنى لانها لن تستطيع الصفح فلم أتحدث اليها بكلمة واحـدة وبدوت كأنى من الاموات ـ أمرتنى أن أسافر وحدى وقالت انها لن تغفر لى أو ترانى بعد الآن ابدا. ولا بد انها كانت تعلم انها لن تستطيع احتمال هذه الحالة فآثرت الموت حتى لاتنقض كلمتها .

لقد رأيت يوم ماتت رجلا يقترب منى ويهز يدى فى حرارة وهو يعزينى قائلا : ان أمك كانت امرأة مدهشة .. لاريب أن موتها قد صدمك وآلمك كثيرا فان علاقتكما كانت من القوة والوثوق.

وانفرجت شفتاى عن ضحكة غير طبيعية وأنا أقول : نعم معك حق ـ ثم هززت يد الرجل وغادرته

وبعد انتهاء مراسم الجنازة رحلت ، فلم يبق هناك ما يربطنى الى المكان أو يبقينى فيه ، كما لم أسأل عن مارتا ولم أذهب الى الحديقة.

كم من السنوات مرت على ذلك الحادث . اننى لا أستطيع تقديرها . فى بعض الأحيان أستعيد الى مخيلتى ذكرى الليلة التى ازهرت فيها براعم التفاح فاجلس الى البيانو وأعزف أغنية «لا كلام ياصديقى ولا تنهد» فاشعر بشيء من العزاء . ولكنها فترات قليلة عارضة . ان حياتى يزداد عبؤها على نفسى مع كل ساعة تمر منها وأنا أعيش لانى لا أملك القوة حتى على الموت . اننى أقيم الآن فى بتروغراد فى هذا المنزل الخانق وأعطى دروسا فى الموسيقى ثم أعود الى منزلى بلا هدف أو غرض .. فالى متى ستطول هذه الحياة ؟

يتدلى من سقف احدى الغرف خطاف كبير .. فلم لا أربط حبلا اليه ؟ لن يعلم بذلك أحد وخصوصا فى أثناء الليل .. ثم ان فى استطاعتى أن أحله متى شئت .. ولم لا أعقد فيه أنشوطة . لن أشنق نفسى .. فاننى لا أقدم على هذا العمل لمجرد اننى عقدت أنشوطة فى حبل .. ان الشنق عمل فظيع .. مروع .. كم أنا بعيد عن مارتا الان ؟ هل صحيح انى سأفعل ؟ كلا .. كلا .. انها تجربة لا غير .. تجربة وحسب

دكتور صبرى جرجس



عظماء التاريخ الثلاثة

بقلم هـ. ج. ويلز
وترجمة سامي جورجي

يحار العقل البشرى فى معرفة عظماء التاريخ الذين تزعموه فانتزعوا منه الخلود والبقاء ، ولكن الكاتب الانجليزى الكبير ويلز يبسط لنا اسماء هؤلاء العظماء ويحدثنا عنهم حديثا شائقاقد يقنع القارىء بما ذهب اليه ، ثم لايجد محيصا من الوقوف امام تلك الشخصية الفذه يمجدها ويجتر أفكارها .

فويلز يقول: قبل ثلاث عشرة سنة سئلت لكى اسمى الرجال الستة العظماء فى العالم فأجبت على هذا السئوال بلاروية اوتعقل . ولكنى مالبثت بعدذلك ان تنكرت لاجابتى السابقة وساءلت نفسى عما اذا كنت متشبثا بها متعلقا باهدابها .. وسرعان ما اعتقدت ان ثلاثة منهم احتفظوا بمكانتهم والثلاثة الآخرون فقدوا الثقة وتغير رأيى فيهم .. والحق انه لايوجد ستة عظماء لنجىء على ذكرهم لأن هؤلاء الستة فرضوا جدلا .ولكن يوجد ثلاثة وثلاثة فقط .

ولما سئلت عن الانسان الذى ترك فى العالم اثرا مستديما غلب ظنى بان السائل نفسه يعنى يسوع الناصرى.فهو على ماأعتقد اهم شخصيه فى تاريخ البشرية وما على المؤرخ الا ان يعالج تاريخ حياته كرجل ولكننا لانعرف عنه كثيرا — كما يجب ان نعرف — ولو ان الاناجيل الاربعة تتناقض فى اعطائنا صورة واضحه لشخصية بارزة الا أنها تتوخى اثبات الحقيقة . ومن الصعب جدا ان يتخيل الانسان بانه لم يعش ابدا وانحياته مخترعة لأنه بهذا يخلق مشاكل امام المؤرخين بدلا من الموافقة على المبادىء الاولية الواردة فى قصص الأنجيل كحقائق ...

وانا والقارىء نعيش فى اقطار تضم بين احضانها الملايين من الرجال ، بيدان يسوع اعظم من

رجل. واذا جاز للمؤرخ ان يتغاضى عن تلك الحقيقة وجب عليه ان يتشبث بالدليل الذى يعترض عليه اذا قرىء كتابه فى كل الامم والامصار . - وانه لسار جدا ان يكون من المتعذر على المؤرخان يصف بأمانة تقدم الانسانية بلا غرض لاهوتى وبدون ان يعطى المكانة الأولى للمعلم الناصرى الذى لايملك شيئا . - وقد جهل المؤرخون الرومانيون القدماء يسوع تماما اعتقادا منهم بانه لم يترك تأثيرا يستحق ان يذكره التاريخ فى عصره ، الا انه بعد اكثر من ١٩٠٠ سنة سيجدالمؤرخ بانفى اخلاق وحياة هذا الرجل العظيم صورة لا تعاند او تدانى .

وما زلنا نتلمس اسباب الجاذبية التى استمالت الرجال الذين ابصروه لاول مرة فتركوا كل شىء وتبعوه ، فقد ملاهم محبة وشجاعة وتكلم معهم بالمعرفة والسلطان الذى اعجز الحكماء .. غير أن معلمين آخرين فعلوا كل هذا ايضا الا ان هذه السجايا لم تعطه تلك المنزلة الرفيعة الدائمه بل جاءت له من جراء الاراء العميقة التى اطلقها والاهمام بربوبية الله وادراكوفهم ملكوت السموات الذى يعتبر من اعظم تغييرات المستقبل التطورية التى قلبت وغيرت تفكير بنى الانسان ..

وليس فى مكنة البشرية أن تفهم حتى الآن التحدى الرائع الذى وجهه الى المعاهد واخضاعه النوع البشرى الذى لم يعرف أن الدنيا بدأت أن تكون دنيا أخرى من اليوم الذى بشر فيه بمذهبه. وكل خطوة يخطوها المرء نحو فهم أوسع أو نحو التسامح والرغبة الطيبة هى خطوة نحو اتجاه الاخاء العالمى الذى نادى به يسوع .. ومقياس المؤرخ لعظمة الفرد هو ماذا ترك وراءه لينمو ..؟ هل بدأ بالناس بالتفكير نحو أساليب جديدة خلدت بعده؟ بهذا القياس يقف يسوع فى المقدمة والصدارة .

وكما أن هذا ما اتصف به يسوع كذلك اتصف ببعضه بوذا الذى أضعه قريبا من المسيح فى الاهمية فانت تجد بكل وضوح رجلا بسيطا .. منعزلا يحارب من أجل النور .. رجلا ذا شخصية حية وليست أسطورة .. وانك لواجد أيضا رجلا أعطى للبشر رسالة وحيدة من نوعها تضمنت كثيرا من أجود أفكارنا الحديثة التى تمت بصلة وثيقة اليها .. فدلل على أن الشقاء والجشع اللذين يسودان الحياة يرجعان الى الانانية التى تأخذ أولا صورة الرغبة فى اشباع الحواس وثانيا صورة الحنين الى الخلود وثالثا صورة الرغبة فى السعادة .

وما على الانسان الذى يريد أن يصبح مخلوقا أعظم شأنا الا أن يكف عن العيش لحواسه أو لنفسه كما كان شأنه قبل أن يصبح مهديا رصينا .

وبوذا نادى بالناس الى انكار الذات ٥٠٠ سنة قبل المسيح ، وكان فى بعض أساليبه أقرب الينا ولحاجاتنا بل كان اكثر وضوحا فى الاهتمام بذاتيتنا فى الخدمة من يسوع وأقل غموضا منه فى توضيح خلود الذات ..

ويلى المسيح فى أهمية تاريخ الذكاء البشرى وبوذا فى تاريخ البشر ارسطوطاليس الذى ابتدع شيئا جديدا هو تصنيف وتحليل المعلومات حتى صار اماما للتوجيد العلمى . وقد عاش قبله كثير من المفكرين ولكن هو الذى علم الناس كيف يكون تفكيرهم مشتركا .. حتى أصبح معلما للاسكندر الاكبر الذى تمكن بفضل مساعدته وتعضيده من ترتيب أسس الدراسة على طريقة وبحالة لم تحاول من قبل .

ففى وقت ما كان له نحو ألف رجل منتشرون فى أنحاء آسيا واليونان يجمعون المواد الخامة للتاريخ الطبيعى . ولقد أجرى طلبته تحليل وتلخيص ١٥٨ دستورا سياسياً حتى ان ارسطوطاليس أصدر على دقة تحليلهم نورا أظهر الحق واضحا جليا مما يعتبر خطوة جديدة واسعة نحو تقدم البشرية

هؤلاء أسماء عظماء ثلاثة وفى مكنتى أن أضيف اليهم عشرين أو ثلاثين ولكنى أرشح الاسماء الثلاثة المتقدمة .. فانى أقلب أسماء كونفيوش وروبيرت اوين المؤسس الحقيقى للمذهب الاشتراكى وكارل ماركس الذى جعل العالم يفكر فى الحقائق الاقتصادية حتى ولو كان تفكيره معوجا قليلا ثم بعد ذلك ماذا أقول عن هؤلاء الفلكيين الذين فضحوا الكرة الارضية وازاحوا الستار عنها وقد كانت أفكار الناس محصورة فى محيط ضيق فأصبحت فسيحة طليقة .؟

وفى هذا الاختيار الذى أخذته أجد ان هواى الشخصى يقودنى نحو روجر بيكون الذى نادى مشددا بضرورة التجربة وجمع المعرفة وتنبأ قبل ستمائة سنة عن اختراع السفن والقطارات التى تسير بطرق آلية ، كما تنبأ أيضا عن آلات الطيران وأجبر الناس على التفكير باساليب جديدة وترك من بعده أثرا خالدا وهو أنه عاش لمنفعة كل الأجيال . هل تريد عظيما امريكيا فى سجل العظماء ؟ انه لنكولن ولا أحد سواه . اذ يظهر لى أنه هو وحده الذى له مميزات أمريكا الجوهرية .. وهو الذى

أعطى الفرصة للصبي الوضيع المنبت عساه يصل الى ذروة المجد بفضل دفاعة عن العدل والمساواة .. وان بساطته ولين طباعه وتفاؤله العميق حمل على الاعتقاد بان العدل يجب أن يسود وكل هذه تبدو كأحسن مبادىء قومتها أمريكا للنوع البشرى .

ولكن ازاء أولئك الثلاثة الذين هم رموز باقية للاخاء . والالوهية والوحدانية والخدمة فى أنكار الذات وتوحيد عقليات النوع البشرى لانجد أحدا غيرهم يدانيهم فى صفاتهم أو يتطاول للوقوف بجوارهم ..

نشرنا فى عدد نوفمبر الماضى مقالا تحت عنوان « العلاجات النفسية » وقد سقط سهوا اسم كاتبه الاستاذ متري أمين فنعتذر عن ذلك الخطأ المطبعي

توحيد التقويم واصلاحه

بقلم الاستاذ نقولا يوسف

تعددت التقاويم واختلفت التواريخ منذ فجر الحضارة بالنسبة الى تفاوت الامم فى الرقى، وتبعاً لحاجتها إلى نظام حسابى تؤرخ بمقتضاه حوادثها ومواسم زراعتها وحصادها وأعيادها. وبذلك ظهر منذ القدم الى اليوم مئات التواريخ والتقاويم اندثر معظمها وظل بعضها حيا حتى الان، وفى مقدمة هذه التواريخ التى ما زالت تستخدم لدى الأمم التاريخ الميلادى والهجرى والقبطى واليهودى والارمنى والفارسى والبهائى وغيرها..

فنحن اليوم فى عام ٥٦٩٨ عبرية و ١٩٣٧ ميلادية و ١٦٥٤ قبطية و١٣٨٥ أرمنية و ١٣٥٦ هجرية و ١٣٠٥ فارسية وهكذا ..

وكما اختلف الناس فى أجناسهم وأديانهم ولغاتهم وعاداتهم وظلوا منذ الخليقة مشتتين متنابذين لا يبغون التقرب نحو وحدة عالمية وأخوة عامة، بل هم لا يرتضون الاتفاق على أتفه المسائل، تسيطر عليهم العادة ويزيدهم الخوف والجهل والمصالح المادية والسياسية تشبثا بكل قديم موروث فانهم أيضا يأبون الاتفاق فى موضوع حسابى اصطلاحى مثل التقويم وتوحيده واصلاحه لا سيما فى عصر تشتبك فيه المصالح وتكثر المعاملات الاقتصادية وتزداد الصلات الأدبية وتنشط السياحة بين جميع الدول ..

وعلى الارض كثير من الشعوب التى تتشبث بتقويمها الحسابى وتضع حوله هالة من القداسة الدينية، وهى تفضله على سائر التقاويم بلا مناقشة. ومثل هذا التعصب يقف عقبة فى سبيل الوحدة.

الانسانية التي يدعو إليها العقلاء . غير أن سنة التطور لا بد أن تسري كعادتها على هذه المصطلحات ولا بد ان يأتي اليوم الذي يتفق فيه أهل الارض على تقويم واحد يسهل على الجميع تبادله واستعماله .

وإذا أتينا هنا بموجز عن بعض التواريخ والتقاويم التي استعملتها الامم فانما لنستدل على كثرتها وتنوعها، وعلى الحاجة الى اتفاق دولي على تقويم واحد تقره عصبة الامم .

ونحن لا نعرف الآن متى بدأ الانسان يستعمل التقـويم ولكن المعروف أن دورة الشمس الظاهرية مرة في اليوم ودورة القمر حول الارض مـرة في الشهر قد ساعدتا على خلق تقسيم الزمن واختراع التقاويم . وقد اتخذت بعض الشعوب القديمة من القمر ودورانه مقياسا لسنتهم وتقويمهم ولكن الامم الزراعية لم تستطع الاعتماد على الحساب القمري لأنه لا يتفق مع الفصول كما نرى في الشهور العربية التي تقع في الشتاء تارة وفي الصيف تارة أخرى . وكانت مصر بين هذه الامم الزراعية التي نبذت السنة القمرية منذ الوف السنين واهتدت لتقدمها في علم الفلك إلى السنة الشمسية ولعلها أول أمة اهتدت إلى هذا الحساب الشمسي وضبطت عليه مواسمها الزراعية وأوقات الحصاد والفيضان وأيام الاعياد . ولا تزال هذه السنة الشمسية وأسماء الشهور المصرية القديمة مثل توت وهاتور مستعملة في الريف المصري إلى الآن باسم السنة القبطية . .

وكان المصريون القدماء قد لاحظوا أن النجم سيرس يظهر قبل الفجر إبان فيضان النيل فتفاءلوا واتخذوا من يوم ظهوره عيدا لرأس السنـة الزراعية . ولما كان هـذا النجم يتم دورته مثل الشمس فقد جعلوا سنتهم ٣٦٥ يوما قسموها الى اثنى عشر شهرا كل منها ثـلاثون يوما وكانوا يضيفون الخمسة الايام الباقية الى آخر السنة ثم أدخلوا فيما بعد السنة الـكبيسة كل أربع سنوات كما نفعل الآن . .

ولما غزا الفرس مصر أبقوا العمـل بالتقويم المصري وبالاحتفال بعيد رأس السنـة ودعوه بلغتهم بالنيروز أي اليوم الجديد . وما برح المصريون يحتفلون بهذا النيروز الى الآن . .

والسنة القبطية هي السنة المصرية القـديمة في حسابها وأسماء شهورها ، فكل شهر ثلاثون يوما يضاف إليها أيام النسيء وهي خمسة أيام للسنة البسيطة وستة للكبيسة . ويبدأ اليوم القبطي كالميلادي عند شروق الشمس بينما يبدأ اليوم الهجري والعبري عند غروبها ...

والسنة القبطية الحالية التى بدأت فى ١١ سبتمبر الماضى هى عام ١٦٥٤ للشهداء . وكان أقباط مصر حتى عصر دقلديانوس الامبراطور الرومانى يؤرخون بالسنة المصرية القديمة ولكن حدث أن هذا الامبراطور أخذ فى عام ٣٠٣ للميلاد يضطهد أقباط مصر ويقتل منهم عشرات الالوف فجعل الاقباط من اليوم الذى ارتقى فيه دقلديانوس هذا عرش الملك وهو ٢٩ اغسطس سنة ٢٨٤ م مبدأ للتقويم القبطى . .

وفى اول يناير سنة ١٨٧٦ أمر الخديوى اسماعيل باستبدال التاريخ القبطى المستعمل بمصر فى جباية الضرائب وأعمال الحكومة بالتقويم الجريجورى كسائر الدول الاوربية وذلك عقب انشاء المحاكم المختلطة والمراقبة المالية . .

وكان العرب قد حملوا معهم الى مصر التقويم الهجرى المبنى على الحساب القمرى فأصبح بمصر إلى اليوم ثلاثة تقاويم . .

أما الاغريق فكانوا يؤرخون بالاولمبياد نسبة إلى الالعاب الاولمبية التى كانت تقام فى سهل اولمبيا مرة كل اربع سنين، وكان أول دور رسمى لهذه الالعاب فى صيف عام ٧٧٦ ق.م وجعل اكثر المؤرخين أول السنة الاولمبية فى اول يوليه وكان كل اولمبياد يستغرق ستة شهور فكان يقال مثلا أن ميلاد المسيح فى الاولمبياد المائة والخامس والتسعين . وكان بعض الاغريق يؤرخون أيضا من موت الاسكندر أى سنة ٣٢٥ ق.م ثم بطل هذا التاريخ، كما بطل التاريخ بالاولمبياد بعد أواسط القرن الخامس .

وكان الرومان يتخذون من تاريخ تأسيس رومة مبدأ لتاريخهم وشاع هذا التاريخ فى كتب مؤرخى الرومان واختلف الباحثون فى مبدأ هذا التاريخ ولكن بعضهم فرض أن بناء رومة كان فى ٢١ ابريل سنة ٧٥٠ ق.م أى نكون الآن فى عام ٢٦٨٧ لتأسيس رومة، وقد زال هذا التاريخ ايضا.

وشاع فى بابل تاريخ نبوخذ نصر الذى يبدأ من ٢٦ فبراير ٧٤٧ ق.م

وكان اليهود ولايزالون يبدأون تاريخهم من السنة التى خلق فيها آدم معتمدين فى حسابهم على ماجاء بالتوراة من مدد وسنين، فوصلوا إلى نتائج قيل إنها تزيد على مائتى نتيجة أقصرها ٣٤٨٣ سنة بين عام الخلق وميلاد المسيح وأطولها ٦٩٨٤ سنة ، أما اليهود المعاصرون فيتبعون الرأى القائل بأن

الخلق وقع سنة ٣٧٦٠ ق.م وعلى ذلك فنحن اليوم فى عام ٥٦٩٨ للخليقة حسب التقويم الحاضر العبرى الذى ذاع منذ خمسة قرون ، والسنة العبرية قمريه شمسيه ويقع مبدؤها تارة فى الخريف وأخرى فى الربيع . .

وهناك تقاويم اخرى كانت تبدأ تاريخها من خلق آدم كالتاريخ القسطنطينى الذى استعمل فى روسيا حتى عهد بطرس الأكبر ويقع الخلق حسب تقديره سنة ٥٥٠٨ ق.م . وكالتقويم الاسكندرى الذى وضعه يوليوس الافريقى وجرى عليه مسيحيو الاسكندرية وكان يقدر الخلق بخمسة آلاف وخمسمائة سنة ق.م وكالتاريخ الانطاكى الذى ينقص عن الاسكندرى عشر سنوات

وهناك التاريخ المقدونى أو السلوقى الذى يبدأ من استيلاء سلوقس نيكاتور على بابل عام ٣١١ ق.م واستعمله اليونان وبعض اليهود فى الشرق

ويبدأ التاريخ الارمنى فى ٩ أغسطس ٥٥٢ للميلاد وهو تاريخ انفصال الكنيسة الارمنية عن اليونانية . ويبدأ التاريخ الفارسى أو تاريخ يزدجرد فى ١٦ يونيه ٦٣٢ م وكان متبعا فى ايران ولا يزال الفرس يؤرخون به فى الهند

ومن التواريخ القديمة الاخرى تاريخ صور وانطاكيه والتاريخ الاسبانى والاغسطى وغيرها

أما التاريخ العربى فيبدأ فى ١٦ يوليه ٦٢٢ م وهو عام الهجرة النبوية وعلى ذلك فنحن الآن فى سنة ١٣٥٦ هجرية، وتقويمه قمرى تقسم فيه السنون الهجرية الى أدوار كل دور منها ٣٠ سنة منها ١٩ كل منها ٣٥٤ يوما والباقى كل منها ٣٥٥ يوما . والحساب القمرى لايتفق مع الفصول إذ تقع شهوره تارة فى الصيف واخرى فى الشتاء . .

وثمت تقويمان جديدان أولهما تقويم الثورة الفرنسية الذى اعتبرت فيه يوم ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ وهو اليوم الذى بدأت فيه الجمهورية بدء تاريخ توقت به السنين وقد قسمت فيه السنة الى اثنى عشر شهرا متساوية، وقسم الشهر إلى ثلاثة أقسام بدلا من أربعة وبدلت أسماء الشهور وجعلت الخمسة الايام الباقية فى نهاية السنة أيام عطلة عامة وقد ذهب هذا التقويم بذهاب الثورة . أما ثانيها فهو التقويم البهائى الذى وضعه الباب المؤسس الأول للبهائية عام ١٨٤٤ وجعل السنة البهائية تسعة عشر شهرا فى كل شهر ١٩ يوما والسنة ٣٦٠ يوما يضاف إليها أيام النسيء وهى اربعة ايام للسنة البسيطة

وخمسة للكبيسة بين الشهر الثامن عشر والتاسع عشر . وسميت الشهور بأسماء الصفات الالهية ويبدأ عامها في ٢١ مارس كما كان الحال في السنة الايرانية القديمة .

أما أشهر التقاويم وأكثرها ذيوعا لاسيما في العالم المتمدين هو التقويم اليوناني الذي أمر بوضعه يوليوس قيصر لتسير عليه الدولة الرومانية وظل مستعملا حتى جاء البابا غريغوري الثالث عشر فنقحه وسمي منذ ذلك الحين بالتقويم الغريغوري وهو الذي نتبعه اليوم .

ولكن هذا التقويم الغريغوري في حاجة أيضا إلى الاصلاح ففيه خطأ مقداره يوم كل ٣٨٦ سنة ، ثم أن شهوره تختلف تارة بين ٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ يوماً ، وكذلك أيام الاسبوع لاتطابق ايام الشهر فتقع الأعياد الرسمية تارة في السبت مثلا واخرى في الأحد .. وكثيرا ماتسبب هذه الاختلافات فروقا في اجر العمال وعقود المقاولات ونحوها .

وقد شعر العالم في العصر الحاضر بضرورة اصلاح التقويم وتوحيده في كل الدول حتى لا تختلف التواريخ في الكتب والأعياد والمعاملات . وقد ألفت عصبة الامم لجنة لبحث هذا الموضوع فتقدم إليها عشرات المشروعات. ولكن أكثرية الناس ترى أن تقسم السنة الى ثلاثة عشر شهرا كل شهر منها ٢٨ يوما فيكون في كل شهر اربعة أسابيع تتفق أيامها مع أيام الشهر وعلى ذلك يكون عدد أيام السنة ٣٦٤ يوما ويعد اليوم الزائد بها وكذا اليوم المضاف الى السنة الكبيسة عيدين لجميع الامم

ثم هناك مسألة الاختلاف في الأعياد المسيحية فان مسيحي العالم يحتفلون مثلا بعيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر بينما يحتفل به أقباط مصر وبعض الطوائف الشرقية في ٧ يناير وكذا الحال في عيد الفصح وفي أعياد اخرى وهذا الاختلاف قائم على اختلاف التقاويم التي لابد من توحيدها واصلاحها على أسس علمية صحيحة وبروح لا يشوبها التعصب وبذلك نضع حجراً في صرح الوحدة العالمية ..

النظر المادى وروح التشكك

عند المصريين القدماء

من كتاب فجر الضمير للمصرلوجي الامريكي برستد
ترجمة وتلخيص الانسة اريس حبيب المصرى

أن اهرام الجيزة برهان واضح ناطق على السلطة والثروة اللتين تركزتا فى أيدى فراعنة الاسرة الرابعة . وبقاء هذه الاهرام مدى خمسة آلاف من السنين رغم كل عوادى الزمن يعزز هذا البرهان من غير شك . اذ لا بد أن الحاكم الذى كان فى استطاعته أن يوجه جهود الملايين من أتباعه وثرواتهم صوب اقامة بناء ارتفاعه ٤٨١ قدما وهو يشغل للآن مساحة ثلاثة عشر من الافدنة — لا بد أن مثل هذا الحاكم كان ممسكا بأعنة حكومة مركزية متسلطا على هذه الحكومة المركزية تسلطا تاماً .

ونحن نعرف الآن أن الرجال الذين هيمنوا على تنفيذ هذا المشروع الهائل كوفئوا من الملك بما وهبهم اياه من الاراضى الواسعة حتى أنهم صاروا يعيشون عليها كحكام الاقطاعيات . ولم يلبثوا بعد أجيال قليلة أن صاروا يتمتعون بمقدار كبير من الاستقلال . وهكذا أصبحت الحكومة المركزية القوية التى يبدو مظهر قوتها أمامنا فى اهرامات الجيزة الهائلة حكومة لا مركزية مفككة . بل ان التفكك بلغ اقصاه حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد حين أشتد التنافس بين امراء الاقطاعيات وضاع الترابط بينهم حتى كادت الامة تسقط لشدة ما حل بها من التفكك والتنابذ . ففى خلال فترة من الزمن لا تزيد على الفى سنة كانت الحضارة الاولى قد تطورت تطورا تاما من البداوة الاولية وما فيها من تنافس رؤساء القبائل المختلفة حتى صارت دولة ذات حكومة مركزية متحدة — ثم تفككت هذه الحكومة المركزية تدريجا الى ان عادت ثانية الى حالتها الاولى من تنافس شديد بين حكام المقاطعات وتنابذ بين اتباعهم . ان شكل الحكم دار دورة كاملة : من اللامركزية والتنافس الى المركزية والاتحاد ثم الى اللامركزية ثانية . وقد استغرقت هذه الدورة نحو الفى

سنة تقريبا - وكانت هى أول دورة خبرتها البشرية فتركت اثرا لا يمحى فى أذهان المفكرين من الرجال الذين كان فى استطاعتهم عند نهاية الدولة القديمة أن يعودوا ببصرهم الى الوراء ليرقبوا مثل هذه السلسلة الطويلة من التقدم فى نظام الحكم - فرأوا ان التنظيم المستمر للمجتمع وما فيه من جلال وروعة قد أثر على آبائهم كل التأثير - وكان من شأن هذا التأثير أن تطورت معه آراؤهم عن معبودات الطبيعة القديمة فصارت آلهة لها اتصال بالمجتمع وبحياته - ولانه كان فى استطاعتهم أن يعودوا ببصرهم الى الوراء ويروا هذا التطور المنظم وما تبعه من انحلال فقد اندفعوا فى التأمل والتفكير - ونحن سنرقب الآن ما كان لهذا التطور من أثر على افكارهم فيما يتعلق بالانسان وبالسلوك البشرى وبالله

والمرجح أن سقوط الوحدة الثانية للدولة القديمة وانهيار صرحها حدث بعد سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد بقليل • وفى خلال التطاحن الذى تلا سقوطها وفى وقت لا يمكن تعيينه على وجه التحقيق استطاع نبيل من حكام الاقطاعيات « وكان حاكما لمدينة هرا كليوبوليس التى تبعد نحو خمسة وعشرين ميلا جنوبا عن ممفيس » ان يستأثر بالحكم وان ينادى بنفسه فرعونا - ولم تترك هذه الاسرة الضعيفة أثرا سياسيا الا القليل من المخلفات - وانشق الجزء الجنوبى من مصر العليا واستقل بمفرده - كما أن الحروب توالت على حدود أقاليم مصر الوسطى - ولقد كان لهذا التفكك النهائى أثر هائل على عقول من راقبوه اذ انهار هذا الصرح بعد أن دام الفا من السنين - وانتقل المفكرون من التأمل فى مظاهر العظمة والابهة الخارجية الى التأمل فى قيمة القوى الداخلية - وليس من شك فى أن مراكز الحضارة كممفيس وهليوبوليس ظلت قائمة كما كانت - وكذلك ظهرت هراكليوبوليس اذ قام فيها على الاقل حاكم مفكر حكيم ومع الاسف انا لا نعرف اسمه - ولكن هذا الحاكم عندما قارب نهاية حكمه كتب لتعليم ابنه رسالة عن سلوك الملك يصح ان نسميها « تعاليم موجهة الى مريكرى »

وهذه الرسالة العجيبة لاتزال للآن محفوظة فى متحف لينجراد وعليها علامات تثبت أنها كتبت فى ذلك العصر الذى تتعلق به ويمكن اعتبارها كلمة صادرة حقا من ذلك الملك الهيراكليوبوليسى القديم . وحين يوجه حديثه الى ابنه يرجع ببصره الى الوراء صوب الدولة القديمة

باحترام عميق لما انتجت من حكمة . فيقول « اما الحكيم فيأتيه البر مجهزا كما ايده الآباء . احتذ مثال آبائك واجدادك . . . لان كلماتهم لاتزال مسطورة فى الملفات . افتحها لتقرأ ولتنقل عنها المعرفة . فهكذا يتضلع العامل » . ويمكننا تلمس اثر بتاهوتب فى هذه الكلمات لانه كان من عادته ان يصف الكلام بانه « صناعة » والمتكلم البارع « بالصانع » . كما ان الامير ينصح بقراءة ملف من حكم بتاهوتب حتى يطيل التأمل فيما تحويه من عظات كان قد مضى على كتابتها اكثر من اربعمائة سنة . ثم يقول الملك الكبير : « كن صانعا فى الكلام تكن قويا لان قوة المرء لسانه والحديث أقوى اثرا من الحرب . » ولكن بتاهوتب كان يعرف كل المعرفة ان اللسان اللبق فى حاجة الى حسن التوجيه وحكمة القيادة اذ يتم حديثه بقوله : « لايستطيع احد أن يقف فى وجه الحكيم ولايناقضه كل من يعرف حكمته . وهكذا لايحدث سوء فى ايامه » وكان غير ممكن طبعا تجاهل المصاعب السياسية التى كانت قائمة اذ ذاك . لهذا نصح الملك ابنه بأن يحافظ على السلام مع حكام الجنوب وان يعنى عناية خاصة بالحدود المهددة الواقعة ناحية آسيا فى الشرق ولوبيا فى الغرب .

ولكن حكمة هذا الملك المجهول تبدو بجلاء فيما يقول عن السياسة الداخلية . فهو يعترف صراحة بقوة الاسر الشريفة العظيمة . وكغيره من ملوك اوربا الذين جاءوا بعده بقرون يرى وجوب التعاون والتفاهم معهم . ولكنه فى الوقت عينه يظهر كثيرا من بعد النظر حين يعترف بضرورة اكتشاف المواهب الكامنة فى رجال الشعب وفى خلق رجال جدد يمكن الاعتماد على كفايتهم . واخلاصهم فى محاربة النبلاء الاقدمين ، فيقول : « اخلق الجيل الجديد حتى تكون محبوبا فى بلاطك ، ان مدينتك ملأى بالشباب المدرب ، زد حاشيتك من الجيل الحديث . زودهم بالممتلكات وامنحهم الحقول وهبهم القطعان ، لاترفع ابن الرجل العظيم فوق ابن الرجل الحقير بل اختر لنفسك الرجل ذا الخبرة والكفاءة . » الا انه ليس من المناسب اهمال البيوتات الشريفة القديمة . لهذا يقول : « عظم نبلاءك لكى ينفذوا قوانينك » لانهم ان لم يكونوا ذوى يسار لايستطيعون اقامة العدل . « ان الغنى فى منزله لايحابى لانه صاحب ممتلكات وليس فى احتياج . اما الفقير (متى كان ذا سلطة) فلا يتكلم تبعا للبر « مآت » لان الذى يقول ليت لى « ليس ممن لايحابون . لانه يظهر المحاباة لمن يقدر ان يبذل له الجزاء . عظيم من كان اشرافه عظاء ، وقوى هو الملك

الذى يمتلك بلاطا حافلا ، رفيع من كان غنيا بالاشراف . ان انت تكلمت بالحق «مآت» فى منزلك فالاشراف المهيمنون على مرافق البلاد يخشونك . وسيكون الخير فى نادى الملك العاقل الذى لايحابى لان من الداخل « داخل القصر » ينبعث الاحترام للخارج »

والى جانب التبعة الملقاة على الملك بتثبيت العدل مدنيا فان الملك الشيخ يوصى ابنه بما على الحاكم من واجبات هامة فى الهيكل وكيف يتحتم عليه أن يوجه اهتماما خاصا لكل الفروض المقدسة التى يعترف بها اعترافا تاما بارتكانه على النعم الالهية . ومع ذلك فان نفسية الملك لاتبدو من اداء هذه الفروض الخارجية الظاهرة فحسب وليست مراعاتها بضمان كاف للرضى الالهى . لان شخصية المعطى اهم من العطية . وفى كلمة تعبر عن فكرة من اسمى التأملات الادبية المصرية القديمة يأمر الملك الهر اكليوبوليسى الشيخ ابنه ان يذكر انه «مقبولة لدى الله فضيلة الرجل البار اكثر من ثور الرجل صانع الشر » وعندما يعتلى الشاب العرش عليه أن يقيم حكمه تبعاً للصفات الادبية الداخلية « اعمل البر حتى تثبت على الارض . عز الحزين ، لاتضايق الارملة ، لاتحرم انسانا ارثا تلقاه عن أبيه ، لا تؤذ الاشراف فى مراكزهم . لا توبخ ما لم يكن فى التوبيخ فائدة شخصية بل عاقب بواسطة غيرك ولكن بتعقل فيسود النظام هذه الارض ... الله يعرف الرجل العاصى وهو يضرب شره بالدم ... لا تقتل رجلا أنت تعرف قيمته وقد رتلت معه الملفات « فى المدرسة » . والرفق الذى أشاد به بتاهوتب يكرره الملك الحكيم ويؤكد وجوب اتباعه فيستحلف ابنه « لا تكن قاسيا لأن الرفق حسن . ثبت ذكراك بالمحبة ... وسيشكرك الناس لحسن مكافأتك .. مسبحينك على رفقك وحسن معاملتك وضارعين لله ان يحفظك » .

ونذكر ان بتاهوتب كان مهتما اهتماما خاصا بالمستقبل فى هذا العالم بسبب التقلبات والاهواء التى تحيط بالمرء فى مركزه . أما مريكرى فينصحه والده الملك بان يفكر فى المستقبل فى العالم الآخر « ان محكمة القضاة الذين يحكمون على من لا قيمة له — أنت تعرف انهم لا يتساهلون فى ذلك اليوم حين يقضون على الشرير البائس ساعة تنفيذ الكتاب ... لا تطلب طول العمر لأن قضاة العالم الآخر ينظرون الى العمر كساعة والمرء يحيا بعد موته فتوضع أعماله الى جانبه كالجبال . لان الابدية

فى البقاء هناك «فى العالم الآخر» والجاهل الاحمق من لا يفكر فيه - أما من يصله من غير ان يكون قد أتى شرا فسيعيش هناك كاله سالكا مسلك أرباب الابدية «الموتى البررة» . فهذا الملك الشيخ يرى أن حياة الخير هنا كالاساس الذى تقوم عليه الحياة فيما بعد إذ يقول: «تذهب الروح الى المكان الذى تعرفه ولا تحيد عن طريقها المعتاد الذى سارت فيه بالامس» ولا شك فى أنه يقصد بطريق الأمس طريق السلوك القيم . لهذا كان القبر ضرورة فهو يقول: زين مسكنك «قبرك» الذى فى الغرب وجمل كرسيك فى مدينة الموتى كانسان مستقيم وكفرد عمل البر «مآت» لان هذا هو ما ترتكن عليه قلوبهم «قلوب الموتى» .

وأهم ما فى حياة الانسان هو صلته بآلهه سواء فى حياته هذه أو فيما بعد - يمر جيل يتبعه آخر والله الذى يعرف الشخصية قد خبأ نفسه... وهو يغلب الناس على أمرهم بما يرونه بعيونهم - فليعبد الله على صورته سواء كانت مصنوعة من الحجارة الكريمة أم من النحاس كالماء يستبدل بالماء . ولا يوجد جدول يدع نفسه مختبئا لانه يطغى على سدوده التى تخفيه - وهذه الكلمة المدهشة الصادرة عن مفكر مصرى عاش منذ أكثر من اربعة آلاف سنة هى على ما يظهر مجهود يرمى الى التمييز بين الاله ذاته وبين الصورة التقليدية الموضوعة فى الهيكل والتى تحمل على الاكتاف للسير بها وسط المواكب أيام الاعياد ليراها الجمهور - ولكن كما أن النهر يطغى على سدوده فهكذا الله لا يمكن حصره فى حدود الصورة المرئية التى تنخدع بها العيون فى حين ان الاله غير المنظور «الذى كان كالاثير لا يدرك كنهه وكنهر يتدفق فى نهر آخر فيصعب التفريق بينهما - ومن الصعب جدا تتبع أفكار هذا الملك العريق فى القدم ولكن من الواضح ان ما خطه على ملف البردى انهو الا تأملات عن الاله الشمس يقرب فيها هذا المفكر الحكيم من ادراك وحدة الالوهية - * وهو يعترف بمجموعة من الالهة يجلسون قضاة على الناس فيما بعد الموت . ويبدو انه بهذه الفكرة يبتعد عن قبوله فكرة اله واحد - صاحب السلطة الادبية - كما أن وحدة الالوهية تبدو ثانية خلال هذه التأملات فى الصورة التى رسمها

* يقول برستد ان اول من لاحظ هذه الحقيقة هو جاردنر فى ترجمته الجريئة لمحتويات هذا الملف بأكملها وهو يظن بأنه لا يوجد للآن من استطاع ان يدرك حقيقة هذه التأملات العجيبة تمام الادراك .

لنا حكيم هيراكليوبوليس فى ختامها والتى يصور فيها الخالق الحاكم المحب « فى متناول الناس معين للخير وهم قطعان الله ، هــو خلق السماء والارض تبعا لرغباتهم ،وارواء عطشهم بالماء وأوجد لهم الهواء ليتنفسوا فيحيوا . انهم أشباهه الذين خلقهم ،وهو يشرق فى السماء حسب رغبتهم ، وقد صنع لهم النبات والحيوان والدواجن والأسماك لغذائهم . هو أهلك اعداءه ، وأدب أولاده بسبب مؤامرتهم على التمرد وجعل النور وفق رغبتهم لـكى يسبح فى السماء ويراهم . اقام حصنا حولهم ، وحين يبكون يسمعهم . وهو الذى هيأ لهم حكاما فى البيضة أى«سبق فرسم لهم أن يكونوا كذلك قبل أن يولدوا »لـكى يكونوا عضد الضعيف »

وعبارة «أهلك أعداءه» تشير الى الاعتقاد الذى كان شائعاً بين المصريين وهو ان الاله الشمس حكم مصر كفرعون أرضى حين تآمر عليه رعاياه فاضطر الى اهــلاكهم . ولهذه الاسطورة ناحيتها الادبية فيما يتعلق بسقوط الانسان عن استحقاقه العطف الالهى . وفيها يعترف تماما بالسلطة الادبية التى للاله الشمس . وفى هذه التأملات يمكننا أن نلتمس مدى المجهود الفكرى عند هذا الملك الحكيم فيما يحاوله لايجاد التوازن بين فكرته السامية عن المطالب الادبية وبين التقاليد الموروثة القائلة باهمية الوسائل المادية . فيقول لابنه «اقم تماثيل لاتبلى للاله لانها تديم ذكرى من صنعهــا . دع الانسان يفعل ما هو صالح لروحه : التطهر الشهرى ، لبس الحذاء الابيض والذهاب الى الهيكل ، الـكشف عن الاسرار ، الدخول الى قدس الاقداس وأكل الخبز فى الهيكل . دع التقدمات تتكاثر ، ضاعف عدد الارغفة ، زد التقدمات الثابتة ، لانها نافعة لمن يقدمها . اجعل آثارك ثابتة بقدر ما بين يديك من ثروة لان يوما واحدا قد تجنى من ورائه الابدية وساعة واحدة قد تدوم للمستقبل . فالله يعرف من يخدمه »ويبدو المجهود للموازنة بين الوسائل المادية وبين ضرورة الصفات الادبية فى تلك الكلمة التى ذكرت قبل حين يقول الشيخ « مقبولة لدى الله فضيلة الرجل البار اكثر من ثور الرجل صانع الشر » ومع ذلك فقدم لله التقدمات لـكى يكافئك بالمثل ، زود هيكله بالعطايا وبالملفــات لان هذا هو الذى سيخلد اسمك . لان الله عالم بمن يقدم له »

هنــا اعــتراف تام بقيمة الحياة السامية فى نظر الله الذى لاتـكفى فى نظره العطايا ولا يعدها مغنية عن الشخصية — اعترافاً يكثر اسمى ما وصلت اليه المثل العليا فى عصر الاهرام . ومع

ذلك فالتقليد الموروث عن الاجداد خاصا بقيمة الوسائل المادية فى البناء وفى التقدمات لا يزال معترفا به من الملك الشيخ . ولعله لم يكن يدرى أنه كان يستعرض مشكلة لم يكن ممكنا أن تترك دون البت فيها ودون ترجيح كفة على أخرى . ولقد أظهرت الاجيال بقسوة عنيفة غير منقطعة فشل الاعتماد على الوسائل المادية لخير النفس البشرية فى المستقبل «بعد الموت» وكشف سير الزمن بلا شفقة عن انهيار صرح المادية وهكذا بدأت أول ظلال الشك والخيبة السوداء تلبد الجو المصرى الصافى وتملأه ظلمة .

ولقد كان لحكمة هذا الملك المفكر أثرها بعدما سقطت اسرته باجيال . فنحن نسمع صداها فيما سرده أحد أشراف الاسرة الحادية عشرة عن حياته الخاصة فيقول : «اننى سمعت من أفواه الرجال كلمات الحكمة التى يتداولها الفهماء وهى أن فضيلة المرء هى كل مايبقى بعده أما صانع الشر فيمحى أثره» وبعد هذا العصر باجيال نعود فنرى ذكرى نصائح الملك القديم تتردد بنفس الكلمات تقريبا فى سيرة شريفين عاشا لاول عهد الملك سيزوستريس «حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م» وجدت مخطوطة فى قبريهما . وكان احدهما شريفا من أعيان أسيوط . وهذا يفتخر بأنه «من اولئك الذين يقضون من غير محاباة . لاننى كنت غنيا . وكنت أمقت الكذب ولا أحيد عن طريق الاستقامة» أما سيرة الشريف الثانى فمنحوتة على حجر جميل الصنع لايزال للآن موجودا فى متحف الفن بنيويورك «المعروف باسم متروبوليتان» والشريف ويسمى منتوزز يقول «كنت أستمع للمتقاضين واتطلب الحقائق من دون أن أظهر المحاباة لمن يستطيع أن يبذل الجزاء لانى كنت غنيا أرفل فى الثروة»

وهنا نجد ان كلا منهما يحاول ان يبرر الغنى كوسيلة لمعاملة الناس بالحق ولاقامة العدل ولكن فشل الارتكان على الوسائل المادية كان يزداد وضوحا يوما بعد يوم حتى آخر عصر الوحدة الثانية . فلقد كانت هذه الوسائل المادية وحدها هى ما اعتمد عليه ملوك الاسرة الرابعة العظام فشهروا بها الحرب العوان مدى اجيال ضد عوامل الفناء . ولكن كفاحهم عديم الجدوى — كما كانت تشهد بذلك الآثار المتداعية التى كانت لاتزال ماثلة امام عيون الاجيال التى تعاقبت بعدهم . كان الكفاح الذى قام به اكابر الملوك كفاح الجبابرة . يفوق كل قوى البشر . وقد ظل قائما بلا انقطاع مدى خمسمائة سنة . وكان كل مابقى من آثار هذا الكفاح الهائل مجموعة من الابنية المترامية تشغل نحو ستين ميلا

مربعا من الارض وتحجب الافق عن العيون بضخامتها وتراصها . هنالك عند ابتداء الصحراء الغربية امتدت تلك الابنية الشامخة كحصون صامتة على حدود الموت . وكان قد انقضى نحو الف من السنين على الهرم الاكبر منها وانقضت اجيال منذ ان انتهى المهندسون من عملهم الشاق وطووا ملفاتهم ومضوا كما مضى العمال بعد ان نفضوا اياديهم من العمل الذى اتموه . وكان الكهنة الموكلون بامر هذه الهياكل وهذه الاهرام قد تركوها هم ايضـــا لان بقاءهم فيها كان معناه هلاكهم اذ انفض عنهم الناس فغادروا الابنية المنيفة والممرات الممهدة الرحبة . وهكذا خيم سكون رهيب موحش على المقابر الشامخة وطغت عليها الرمال وغطت تلك الخرائب التى كانت فيما مضى ابنية شامخة فخمة ، فزالت من امام العيون الاقواس المتداعية والاعمدة الساقطة، وصار المكان كله قاعا صفصفا خربا لايسمع فيه صوت ولا يرى فيه مخلوق سوى ابن آوى وهو يحاول الاختفاء عن مطارديه - كل هذه الخرائب وما اصابها من اهمال ومن تعثر ابن اوى فيها كانت شهادة ناطقة قاطعة بان العناية بالهة الموت القديمة الحامية للصحراء ضرب من ضروب العبث - والى يومنا هذا لايوجد منظر اشد روعة من اهرامات الجيزة الشاهقة - ومن السهل على كل منا ان يذكر شتى المشاعر التى تملكته حين رآها لاول مرة .

وكثيرا ما احسسنا بالرهبة والخشوع ولكن هل ندرك نحن العائشين فى القرن العشرين ان هذه المشاعر وهذه الاحساسات كانت هى بعينها التى خالجت خلفاء مشيديها الذين عاشوا بعدهم بقرون قلائل ولم يمض على ذهاب الاسرة الرابعة سوى بضع مئات من السنين ؟ وهل فى امكاننا ان ندرك ان هـذه الاهـرام كانت قديمة بالنسبة لمن عاشوا سنة ٢٠٠٠ ق - م - ؟ ان منظر الاهرام كان عميق الاثر على اذهان المفكرين الذين عاشوا فى آخر عصر الوحدة الثانية - فان كان قد بدأ ظل من الشك يظهر لمن عاشوا فى عصر بناة الاهرام فى الاعتقاد بان الوسائل المادية المحضة هى الوسائل الوحيدة لقهر عوامل الفناء وهى وحدها الكفيلة بالحصول على الخلود فان هذا الظل اخذ يقوى ويزداد حلكة حين تداعت هذه الوسائل المادية وحين صارت الاهرام ومقابرها كتلا من الخرائب يسودها الصمت الرهيب وتتساقط اعمدتها واقواسها دون ان يبالى بها احد - وهكذا اخذ الشك يقوى ويتسلط على العقول ولم يلبث ان تدفق الى الادب -

وانه لعصر ناضج ذلك العصر الذى اخذ فيه القوم يتساءلون فيه عن صحة العقائد التى اعتنقها الآباء ولا يرضون بان يتخذوها قضية مسلما بها لا لشيء سوى لان اجدادهم اعتقدوا بصحتها . فهو يعنى انهم فكروا مليا فيما تسلموه وبدأوا يشعرون بقوتهم الشخصية وبمقدرتهم على ان يؤمنوا به اولا يؤمنوا . وتفكيرهم هذا هو خطوة واضحة فى سبيل الشعور بالشخصية ومقدرة الفرد على التجديد . ولا يظهر الشك الا بين قوم نضجت حضارتهم — ولا يوجد على الاطلاق بين الاقوام العائشين فى سذاجة الفطرة . اذن فهؤلاء المتشككون المفكرون الذين عاشوا فى نهاية الوحدة الثانية كانوا هم الخلاصة لما انتهى اليه التقدم الفكرى خمسة قرون حاسمة . وتبدو وجهة نظرهم بوضوح انشودة كانوا يتغنون بها فى عيد خاص بذكرى الموتى — وكانوا ينشدونها فى المقابر حين يجتمع كل جماعة حول قبر فقيدهم . ولا يوجد سوى نسختين من هذه الانشودة احدلها على ملف بردى والاخرى على جدران قبر فى طيبة . وقد كتبت فى قمة النسخة المخطوطة على البردى هذا العنوان : « الانشودة التى هى فى بيت الملك انتف * الموضوعة امام عينى المنشد حامل القيثارة »

وانه لمن المدهش حقا ان تكتب هذه الانشودة على جدران قبر خاص بملك من الاسرة الحادية عشرة «حوالى» سنة ٢١٠٠ ق . م وفى استطاعتنا ان نتخيل ونحن نتتبع الانشودة بان المنشد حين كان يغنى كان يقف على مرتفع من الارض ويرفع بصره صوب الاهرام التى كانت تبدو له عن بعد . وهذه هى الانشودة :

انشودة عازف القيثارة

ما اعظم فلاح هذا الامير الصالح

فقد اتمت فيه الاقدار الكريمة قصدها

تمر الاجيال المتعاقبة

تتبعها غيرها

منذ ايام اجدادنا

---

* يقصد بالبيت المعبد المتصل بالقبر . وانتف هذا احد ملوك الاسرة الحادية عشرة .

الآلهة الذين عاشوا قبلنا
الذين ينعمون بالراحة في اهراماتهم
الاشراف والموتى الامجاد ايضا
مدفونون في اهراماتهم .
اولئك الذين بنوا معابدهم
لم يبق لهم من اثر
تأمل فيما حل بمكانهم .
لقد سمعت اقوال أمهوتب وهاردداف
كلمات ذاع صيتها كما تفوهوا بها .
هذه الاماكن الخاصة بهم
لقد تداعت جدرانها
لم يبق منها شيء
كأن لم تكن
لم يأت احد من هناك
ليخبرنا كيف حالهم
ليحدثنا عما أصابوا
ليريح قلوبنا
الى أن نرحل نحن أيضا
الى حيث سبقونا
شجع القلب على النسيان
واملأ سبيل رغباتك بالمرح
طالما حييت

ضع المرعى رأسك

والبس ثيابا من التيل الناعم

وانعم بكل أسباب الرفاهية

والكماليات الحقة التى للآلهة

زد فى أسباب استمتاعك

ولاتدع قلبك يتراخى

اتبع رغبتك وما فيه خيرك

رتب أحوالك على الارض

تبعا لما يمليه عليك قلبك

الى أن يأتى يوم الندب

حين لا يسمع ذو القلب الصامت بكاءهم

ولا يصغى ساكن القبر للعويل

اعط اليوم السعيد حقه من المرح

لا تتراخ فيه

فهوذا لايأخذ انسان ممتلكاته معه

ولا يعود أحد ممن يذهبون هناك

تلك هى المشاعر التى جاشت فى صدور بعض المفكرين من المصريين الذين عاشوا فى ذلك العصر الجديد حين كانوا يبصرون مقابر اجدادهم الهائلة ويتأملون هول الفشل الماثل امامهم فى اهرام آبائهم . وحتى اسماء رجال الحكمة والفكر امثال امهوتب وهارددف خطرت على بال المنشد لانهم نالوا بحكمتهم خلودا يفوق الخلود الآتى عن طريق المقابر المادية الهائلة ـ ولم تكن صدفة أن يكون اسم امهوتب أول اسم ذكره المنشد ـ وامهوتب هـذا اول من شيد بناء شامخا من الحجر فهو أبو المهندسين البنائين . ولانه كان مهندس الملك زوسر «سنة ٣٠٠٠ ق ٠ م ٠» فقد اقام لاول مرة

صرحا باذخا هو اقدم مابناه الانسان من الحجر الصلب وما بقى لنا من العالم القديم وهوالهرم المدرج بسقارة • وكانت شطرة لها رنة خاصة تلك التى عادت بمنشدها الى ذكرقبرذلك المهندس العظيم فوجده متداعيا زالت معالمه كأن لم تكن • والواقع أن قبر امهوتب لايزال مجهولا حتى يومنا هذا. اما هاردداف فكان احد ابناء الملك خوفو وهو بذلك ذو صلة بالهرم الاكبر ولان ذكرى هذين الرجلين بقيت لما عرف عنهما من الحكمة والمعرفة فقد اتخذت هذه الحقيقة دليلا آخر على عجز المسائل المادية كوسيلة للخلود • ولكن تبدو فى الوقت نفسه رنة من الاسى والتأمل العميق فى تلك الكلمات التى يقول فيها المنشد انه لا يستطيع معرفة ما أصاب الراحلين لانه لم يعد واحد منهم ليخبره بما هنالك — رنة يمكن سماع صداها فى الشرق بعد انقضاء ثلاثة آلاف من السنين فى الابيات التى قالها عمر الخيام وهى :

«غريب — اليس كذلك؟ ان من الملايين

الذين جازوا أبواب الظلمة قبلنا

لم يعد واحد ليخبرنا عن الطريق

الذى يجب أن نجتازه بانفسنا لينكشف لنا »

وهذا تشكك فى كل الوسائل مادية او معنوية للحصول على الخلود • وليس لهذا التشكك من جواب الا الجواب الوحيد هو اطراح الشكوك جانبا موقتا والتنعم بما فى العالم من ملاذ وشهوات تطغى على الشكوك فتغرقها • ولذلك «فلنأكل ولنشرب لاننا غدا نموت • »

اما النسخة الثانية فتوجد فى قبر «الاب الالهى كاهن امون — نفرهوتب» فى طيبة • ولكنها اقل روعة من الاولى وهى لسوء الحظ ناقصة • ولكن بها بعض شطرات لها قيمة خاصة وبها تأملات عن باطل الغنى كأنما اراد كاتبها ان يتوسع فى الفكرة التى بدت فى النسخة الاولى القائلة بانه «لا يأخذ احد ممتلكاته معه» والمال لاقيمة له لان النهاية واحدة «لاولئك الذين كانوا يمتلكون المخازن وينفقون عن سعة على موائد التقدمة ، ولاولئك الذين لم يكن لهم مثل هذه النعم» لذلك ينصح الغنى بان «يذكر اليوم الذى سيحمل فيه الى حيث لا يعود» — «فاتبع هوى نفسك»

ومغنى الانشودة طبقا لهذه النسخة لايجد مخرجا له من التأمل فى الموت ولـكنه يشير الى انه من الخير على اية حال ان يترك الانسان ذكرى حسنة بعـده — ليس لان عمل الخير يؤدى الى اية منفعـة فى العـالم الآخر بل ليبـقى اسمه فى اذهان من يأتون بعده . فالحياة الادبيـة التى يحتمهـا «الاله العظيم» الذى لامفر من قضائه فيما بعد — هذه الحياة الادبية وكل مايأتى عنها من خـير فى عالم الموتى كنتيجة طبيعية لها لاذكر لها على الاطلاق فى ذهن هذا المتشكك . وهو يتجاهل الآلهة ولا يذكر الا الاله الشمس «رع او اتن» الذى يظهر اسمه حتى فيما يتعلق بالمومياء حين يخيل لنا ان اوزوريس هو الذى يجب ان يذكر . فالانغماس فى الملذات والذكرى الحسنة هما خلاصة ماينادى به اولئك المتشككون الذين تركوا تعاليم الآباء .

ولاشك فى ان السلوك الادبى كـان موضوع تأمل عميق منذ عصر «قصة ممفيس» ولـكن لم يكتسب المصريون المقدرة على الاختلاء بانفسهم للتأمل والحـكم الا بعدها بالف سنة فى العهـد الاقطاعى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . حين استطاعوا لاول مرة ان يبينوا المجتمع كوحدة فاصبح محلا للتأمل و بعد التفكير . وكـانت نتيجة هذا التأمل وهذا التفـكير العميق للبعض منهم تشاؤما لا ينفذ اليه شعاع من الامل . الم تكن شخصية المجتمع كوحدة قد بلغت من الشر ابعد الحدود حتى ان العمل على اكتساب حسن الذكر كـان اقل قيمة مما تخيله المنشد عازف القيثارة ؟ ثم ماذا يـكون الحال لوفرض ان لطخ اسم الفرد بعار من غير ماذنب اقترفه ؟ ولو فرض انه لم يـكن فى مقدوره ان يدفع عن نفسه هذه التهمة الباطلة ؟ — ثم لوفرض ان المرض أوالضعف اقعده فلم يستطع أن يسترسل فى اشباع رغبات نفسه وميولها ؟ هذه الحالة وماتفترضه هى بعينها ماتصوره لنا احدى الملفات البردية التى لا تزال محفوظة للآن فى متحف برلين . وربما كان هذا الملف أدهش مخلفات ذلك العصر السحيق . ويمـكننا أن نسمى ما فيها بانه « نجوى متشائم الى روحه» ولو أن الاقدمين لم يضعوا لها عنوانا . والموضوع العام فيها هو اليأس الناتج عن حالة المجتمـع — يأس لا سبيل الى الحياة معه ولا منقذ منه الا الموت . ولا حاجة الى الاشارة بما يثيره الـكلام فى هـذا الموضوع فى ذلك العصر السحيق من دهشة وعجب — لان الموضوع هو فى الواقع يتعلق بحـالة

نفسية ، أو هو اختبار داخلى لنفس معذبة تتألم ظلما • فهو اذن أقدم رسالة أدبية تصف اختبارا نفسيا .

ولسوء الحظ أن المقدمة التى تصف الظروف المؤدية الى هذه الثورة النفسية قد ضاعت — فالكتاب اذن ينقصه التمهيد ولكن يمكن استخلاص بعض الحقائق (التى لا شك أننا كنا نجدها فيه لو أننا عثرنا عليه) من التأملات عينها . ولا يعرف اسم المؤلف — ولكنه يبدو لنا رجلا رقيق النفس أصابته المصائب وتوالت عليه المحن . مرض فهجره اصدقاؤه بل هجره أخوته الذين كان يجب عليهم العناية به . ولم يبرهن له احد عن الاخلاص لانه وهو فى محنته سرق جيرانه ماله ونسى الجميع ما كان قد فعله من خير . ومع أنه كان حكيما فصيح اللسان الا انه زل حين حاول الدفاع عن نفسه • ثم حكم عليه ظلما وعدوانا فصار اسمه مضغة فى الافواه بدلا من أن يكون محل الاجلال والاكبار • وفيما هو على هذه الحالة من اليأس والقنوط تراآى له شبح الموت فعول على الانتحار • وهنا يبدأ الجزء الذى لا يزال باقيا • فنراه وهو واقف على حافة القبر وقد تراجعت روحه هاما من روعة الظلمة فيما بعد ورفضت أن تتبعه • وفى محاورة طويلة بين الرجل وبين روحه اخذ الرجل يناقش روحه ويحاجها كأنما هى شخص آخر • وأول ما تبديه روحه من المخاوف هو ارتياعها من كونها قد لا تجد قبرا تسكنه بعد الموت • ومن الغريب أن نذكر هذه المخاوف مع أن هذا الرجل كان ضمن من يتشككون فى فعل الوسائل المادية • ولكننا لا نلبث أن نكتشف أن هذه المخاوف انما ذكرت كوسيلة ادبية لاثبات تفاهة الوسائل المادية تفاهة تامة ويظهر ان الروح قد افترضت الانتحار حرقا ثم تراجعت من هول هذه النهاية • وبما انه لن يوجد صديق أو قريب ليقف على القبر ويقوم بالمراسيم الدينية للدفن فقد أستحلف المتشائم روحه لتؤدى له هذه المهمة • وهنا ترفض الروح الموت بأية وسيلة وتصف اهوال القبر • «فتحت روحى فاها واجابتنى قائلة « ان انت تذكرت الدفن انه حزن ، انه مجلبة للدموع وللألم ، انه اخذ الانسان من بيته والقاؤه فوق المرتفع « الجبل حيث القبور » فلا تعود تصعد الى المرتفعات لترى الشمس . اولئك الذين يبنون بالجرانيت الاحمر ، الذين يقيمون المقبرة داخل الاهرام ، اولئك الحسان داخل هذه الأبنية الجميلة الذين صاروا كالآلهة ، ان موائد تقدماتهم اصبحت خاوية كموائد المتعبين الذين يسقطون

على قارعـة الطريق لفرط الارهاق كوائد اولئك المـوتى الى جانب القنوات فجرفتهم المياه بعـد ما قتلهم الحر والتهمهم السمـك . اصغ لى — لانه من اللياقة ان يصغ المرء — اتبع هوى نفسك وانس الهم . »

تلك اذن اجابة النفس حين تنظر الى الموت وفقا للتقاليـد . فيؤكد المتشائم أنه «سعيـد من يرقد فى اهرامـه . ويقف الى جانب تابوته قريب» ويلح فى الطلب الى روحـه بان تكون « الذى يهتم بدفنى ويقدم التقدمات عنى ويقف على قبرى ليعد لى مرقدى . » ولـكن روحه تعود فتذكـره بالاهرام المتـداعية والخرائب التى اصبحت كل ما بقى من مقـابر العظماء كما تذكره بالاهمال الذى صار نصيب هذه المقابر وبخلو موائدها من التقدمات كموائد البؤساء الذين يسقطون كالحشرات وهم يشتغـلون باقامة السدود فوق القنوات . ولا يوجد سوى حل وحيد : هو الحياة ونسيـان الهموم واغراقها فى الملذات .

والى هذه المرحلة لاتتعدى هذه القطعة الادبية مافى غيرها من التأملات . ولـكنها بعد ذلك تختلف عن كل ما سبقها . فيحاول المتشائم ان يثبت ان الحياة اقل احتمالا من الموت وابعدما تكون عما يتوهمه البعض من انها مسرح للملذات وهو لـكى يثبت صحة مايقول يكتب اربـع مقطوعات من الشعر موجهة الى روحه وهذه المقطوعات هى الجزء الثـانى من الرسالة وهى لحسن الحظ اكثر وضوحا من الجزء الاول . ففى المقطوعة الاولى يصف احتقار الناس لاسمه ويستعين فيها بتشبيهات مختلفة مأخوذة عن الحياة اليومية لتوضيح مايقول . اما فى المقطوعة الثانية فهو ينسى نفسـه ليصف اولئك المسئولين عما اصابهم من شقاء — وهو اذ ينظر الى المجتمع فى عصره لايرى سوى الفساد والمكر والظلم والخيانة حتى من اقربائه • وانها لتهمة رائعة تلك التى يوجهها إلى المجتمـع وهـو اذ يتفوه بها يسائل نفسه مرة بعد اخرى : «إلى من اتحدث اليوم ؟» ولاشك انه يعنى بذلك « اى نوع من الناس اولئك الذين اتحدث اليهم ؟ » وفى كل مرة يكون الجواب على هذا التساؤل اتهاما جديدا ثم ينتقل فى المقطوعة الثالثـة الى امتداح الموت ولـكنه لا يبلغ فى وصف ذلك الذروة التى بلغهـا افلاطون فى وصف موت سقراط ، ولاهو يقرب من تلك الشكوى المريرة التى

يتفوه بها ايوب فى ألمه ، ولكن هذا الشعر بوصف كونه اقدم تأوه من انسان يتألم ظلما ، وكأقدم صرخة للبرىء يتردد صداها على مر الدهور من ذلك العالم القديم هو قطعة رائعة من الادب لها قيمة منقطعة النظير ، لا تخلو من جمال ومن رقة تشير الشفقة والالم . ومن المدهش انه لا يذكر اسم الله فيها وانما يتغنى بالخلاص من كل ما فى هذا العالم من ألم لايحتمل — ينسى الماضى ولكنه لا يمتد ببصره الى المستقبل . وهو صورة حقة للعصر وللبلد الذى كتبت فيه . لان كل ما فيها من صور مأخوذة من الحياة على ضفاف النيل فى ذلك العهد . وعلى الرغم من ان ما فيها من صور مأخوذ من عالم بعيد غير مألوف «الى حد ما» فانها للآن تؤثر فى نفوس قارئيها تأثيرا بليغا .

اما فى المقطوعة الرابعة فيتجه المتشائم صوب المستقبل الذى تجاهله تماما فى الثالثة . وهو يبدأ كل جزء منها بكلمات «ذاك الذى هناك» او «اولئك الذين هنالك» ويعنى بها الموتى . «فذاك الذى هنالك» سيصير هو نفسه الها «وسيوقع العقاب على الشر وصانعه» لا على البرىء كما فى هذه الحياة و«ذاك الذى هنالك» سيقلع مع الاله الشمس فى زورقه السماوى وخير التقدمات ستقدم الى الآلهة بدلا من الاسراف فى تبديدها على الحكام الفاسدين اللصوص . «ذاك الذى هنالك» سيحترم لحكمته وسيوجه تظلمه للاله الشمس نفسه الذى سيمنحه الفرصة يوميا لبث شكواه .

وكان المتشائم قد ابدى ثقته فى انه سيبرر فيما بعد وهو يعود الى هذا الاعتقاد فى المقطوعة الرابعة التى يختتم بها رسالته العجيبة . فهو اذن ينتهى الى نتيجة شبيهة بتلك التى انتهى اليها ايوب وهى استئناف بث شكواه الى الحاكم العدل ليتبرر مما علق به من تهم . ولكنه لم يتفق وايوب فى كون ايوب قد صبر اما هو فقد عول على الانتحار . وهو قد عول عليه لانه وجد ان الموت هو الخطوة التى لابد من اجتيازها للوقوف فى ساحة العدل وهو لذلك مرغوب فيه باقصى سرعة .

وهكذا ترضى روحه ان تقبل على الانتحار لانها تتوق الى الخلاص واثقة كل الثقة بما سينالها من مزايا بعد الموت — وهكذا يجوز المتشائم الظلال وينتقل ليكون مع «اولئك الذين هنالك» .

ولا يسعنا الا الشعور بشىء من الاسى عند مراقبة هذا المجهول يعبر من عالمنا الى العالم الثانى وتغطيه حجب الجلال . فان روحه هى اقدم روح بشرية استطعنا ان نلمح قبسا من خفاياها الداخلية وبيننا

وبينها اربعة آلاف سنة .

لقد كان رجال العهد الاقطاعى يتبارون فى اقتناء هذه القطع الادبية فالملف الذى خطت عليه هذه الرسالة هو الملف المحفوظ الآن بمتحف برلين وقد كتب فى آخره « انتهت من البداية الى النهاية كما وجدت فى المخطوطات » فكاتبها قد نقلها بلا شك عن ملف أقدم . ولا شك أيضا فى أنه كانت توجد عدة نسخ غيرها فى مكاتب المفكرين فى ذلك العصر . ولقد نشأت قصة المتشائم من اختباره الفردى الذى كان يعبر عن حقيقة الحالة المضطربة المؤلمة المحيطة به . ولأن كثيرين غيره أحسوا بنفس مشاعره وعرفوا اختباره شخصيا فانهم كانوا يرتاحون الى قراءة ماخطه والتفكير فيه . وهذه خطوة حاسمة فى التقدم البطىء صوب الشعور بالنفس وهو تقدم أستغرق أجيالا حتى انتهى الى قيام الفرد كقوة أدبية ذاتية وحتى تحول الفرد فاصبح فى مقدوره ادراك معنى الضمير وجعله المحكمة العليا التى يرجع اليها فى الحكم والتى بها يستطيع أن يواجه المجتمع ويتهمه ويقضى عليه . وموقف هؤلاء الرجال المفكرين هو موقف من يشعر بعظم المسئولية الادبية للفرد والمجتمع . وهو موقف نستطيع نحن الآن أن نفهمه ونستسيغه لكثرة من توالوا علينا من الانبياء والرسل . ولكن الاختبار البشرى لم يكن قد أبرز مثل هؤلاء الرسل عند قيام العصر الاقطاعى فى مصر منذ اربعة آلاف سنة . فظهورهم على ضفاف النيل اذ ذاك كان فاتحة عصر جديد للبشرية — عهد يفسح المجال للفكر البشرى والمسئولية الأدبية .

وقصة المتشائم ولو أنها قصة اختبار فردى الا أنها تناولت فحص المجتمع الذى كان ضعفه ونقصه سببا فى كل ما اصاب هذا المتشائم من بلايا . ونحن نجد أن المفكرين من المصريين كانوا يجدون لذة عظمى فى التغنى بالمثل العليا للسلوك — ونجد أن هذا التغنى قد بلغ مرتبة سامية فى حكم بتاحوتب ومنها الى نصائح مريكرى . ولكن هؤلاء المفكرين مع سمو ما تغنوا به من المثل لم يكونوا ليقفوا قليلا كى يقارنوا بين نظرياتهم النبيلة وبين الواقع . ففى « نصائح مريكرى » نجد كلمة « ثور صانع الشر » ونرى الاشارة الى تكديس خطايا المرء فتصير كالجبال الى جانبه عند الدينونة . ولكن لا نجد أى ادراك لانحطاط المجتمع . فنحن أذن فى هذا العصر «سنة ٢٠٠٠ ق.م.»

قد وصلنا الى مرحلة بدأ الحكماء يدركون فيها هول الفرق بين المثل التى توارثوها عن أجدادهم وبين الحقيقة المروعة المحيطة بهم . وهم أيضا قد بدأوا يظهرون اهتماما جديد بانحطاط المجتمع الذى يعيشون فيه ومقدرة على التأمل فى أعماله وادراك اخطائه ، وهذا كله يصبح موضوعا للكتابة ولو انها كتابة التشاؤم — فى هذا العصر العجيب ، عصر نما فيه الادراك الشخصى ودب فيه دبيب اليأس والخيبة لاول مرة فى تاريخ البشر

وقد عاش فى هـــذا العصر كاهن من كهنة هليوبوليس اسمه كيكيبرى سونب عبر عن تأملاته القائمة فى رسالة كانت لا تزال متداولة بعده باجيال حين نقلها كاتب فى عصر الاسرة الثامنة عشرة على لوحة لا تزال للآن فى المتحف البريطانى . وهى شيقة لانها ترينا كيف ان رجال ذلك العصر البعيد كانوا شاعرين بانهم بدأوا ينتهجون سبلا جديدة فى التفكير وانهم حادوا بعيدا عن عدم المبالاة والقناعة البادية لهم فيما كتبه آباؤهم . وكاهن هليوبوليس يبدأ حديثه كما يلى : « ليت فى مقدورى ان اتفوه بكلمات مجهولة وأتحدث باقوال غريبة ، أو بالاصح ليت عندى لغة جديدة لم تتردد على المسامع من قبل ، خالية من التكرار ، بدلا من هذه الكلمات التى طالما ترددت وتحدث بها الاقدمون . . . . لقد تكلمت وفقا لما رأيت مبتدئا بالرجال الاول ثم الى من جاء بعدهم . لقد سقط البر وقام الظلم وسط قاعة المشورة ، واعتدى على مشاريع الآلهة وأهملت مطالبهم . فالبلد فى شقاء، الحزن فى كل مكان ، المدن والاحياء الواسعة كلها فى نحيب ، الجميع على السواء سقطوا تحت الظلم أما حرمة الاشياء فقد ديست . . . . حين أهم بالكلام أشعر بان نفسى ثقيلة من الحزن . أنا متألم لقلبى اذ يحزه الصمت . ولو انه كان قلب انسان آخر لانحنى امام العاصفة وصمت . أما القلب الشجاع فهو رفيق صاحبه . ليت لى قلبا فى امكانه الالم فحينئذ كنت أرتاح اليه .. تعال اذن ياقلبى اتحدث اليك لتفسر لى ماذا هى البلاد .. أنا غائر فى تأملاتى لما أصابها . تتوالى المصائب اليوم ولاتنقشع غدا . الجميع واجمون والبلاد كلها فريسة الفوضى . لا يوجد انسان واحد خال من العيب — بل الجميع اخطأوا . القلوب واجمة . وصاحب الأمر تساوى مع من يأمره وقلب كليهما قانع . يستيقظ الواحد منا يوميا للألم والقلوب لاتلقيه خلفها . وما كان بالامس يتجدد اليوم .. لايوجد حكيم الى حد الادراك ولاغاضب الى حد الكلام . ما أشد ما أعانى . والفقير ليس

له قدرة على تخليص نفسه ممن هو أقوى منه . وما أشـــد الألم فى الصمت ولـكن فى التحدث الى الجاهل ما هو أمر ..»

هنا اذن انسان هزه فساد مجتمعه هزا عنيفا . وهو يتأمل فى هذا المجتمع كوحدة ومع أنه يعبر عما فى نفسه من ألم لما يواجهه من فوضى الا أن ألمه ليس بالهم الوحيد . وهو مشغول البال آلم للمجتمع الذى يعيش فيه — ذاك المجتمع الذى يرسف فى قيود الضعف والخمول ولا يستطيع ادراك مدى بؤسه وشقائه . وليس فى مكنته أن يعمل ليتجدد . وكثيرمن تأملاته يمكن أن نسمع صداها فى افواه المفكرين الآن ممن رق احساسهم الادبى . فمن الظاهر اذن أن الناس كانوا فى ذاك العصر قد وصلوا الى مرحلة بدأوا يشعرون فيها لأول مرة فى تاريخ البشرية بعظم اخطاء المجتمع وبانحطاطه الادبى .

ووجهة هؤلاء المفكرين ترجع الى حد ما الى نمو الادراك الادبى نموا مطرداً . ولكن هناك عوامل أخرى ساعدت على حدة خيبتهم . لقد تأثر أولئك الرجال تأثراً عميقاً بتأملاتهم فى حياة البشر هنا وفيما سيقدر لهـا بعد الموت . وقد لاحظنا من قبل شيئا من أسى الخيبة التى انتابتهم حين اكتشفوا بأن الوسائل المادية المحضة تافهة لاتضمن السعادة النفسية فى العالم الآخر . هنا اذن تقليد قديم غائر فى القدم حتى انهم لايستطيعون تحديد منشأه — تقليد من تقاليد الآباء تداعى وانهار فجرف معه كل شعور بالطمأنينة وبالثقة فى العالم الآخر . وربما كان من جراء ذلك أن الثقة فى حـكمة ألاولين والركون اليها ركونا أعمى لم يعودا فى الامكان . فان كان هذا هو اختبارهم نحو ما تسلموه عن الآباء فيما يتعلق بالحياة الثانية فان تزعزع ايمانهم زاد اضعافا لما رأوه فى هذه الحياة . فلقد دام مدى الف من السنين نظام قومى ممثلا فى فرعون واسمه ماآت « الحق — العدل — البر » ولـكن هذا النظام أصابه الخلل . فنجد الشمال منقسما على الجنوب والملك الشيخ فى نصائحه لابنه مريكرى يبدى مخاوفه من هجوم الاغراب ويؤكد ضرورة حـماية الشمال . وبالتدريج تداعت القوة المنظمة التى دامت هذه القرون الطوال واكتشف الطامعون من الاجانب مواضع الضعف فى الامة التى كانت عظيمة قوية فاخذت جموعهم تنهال كالسيل على الدلتا من آسيا فى الشرق ولوبيا فى الغرب—وسارت الفوضى فى أثرهم فتم الخراب . وربما كانت هذه الحالة المحزنة هى التى يصفها كاهن هليوبوليس فى مراثيه

أمافلسفة التفاؤل الهادئة التى نجدها فى حكم بتاهوتب فقد سقط عليها ظل كثيف من التشاؤم، از دادت كثافته لسببين الاول ضياع الامل نهائيا فى الحياة بعد الموت المؤسسة على عمدة الوسائل المادية ، والثانى أن النظام الادبى الادارى الذى دام الفا من السنين والذى كان الاساس لكل مجهودات المجتمع ، هذا النظام الذى خيل للجميع أنه دائم الاستقرار تداعى وانهار . فسقط الامل فى هذه الحياة وفى الحياة الاخرى تحت الانقاض وعمه ظلام دامس خيل لكاهن هليوبوليس ولغيره من المفكرين ان الاله الشمس نفسه لن يستطيع أن يبدده . فى خلال ألفين من السنين من الحياة القومية المنظمة أقام الناس مقاييس خالوها دائمة لاتتزعزع وتلك المقاييس التى قدروها وسموا بها كانت أول ما جرفه التيار . فكان ذلك العصر الذى ضاعت فيه هذه المقاييس المثلى هو أقدم عصر للشعور بالخيبة والقنوط واليأس . وهذا الانهيار التام لكل الآمال البشرية السامية وكل الطموح قد حدث عدة مرات فى التاريخ منذ ذلك العصر البعيد . وكان آخر حدوثه فى السنوات التى أعقبت الحرب الكبرى . ترى هل كان الحزن والعويل هما كل ما وجده اولئك المصريون المفكرون حين اسودت الدنيا فى عيونهم وضاقت بهم ؟ انه لمن الشيق حقا لنا نحن الذين لانزال نحارب الفساد وسوء النظام فى هذا العصر أن نتتبع أفكارهم وشجاعتهم فى مجابهة تلك الكارثة الاولى التى دهمتهم منذ أربعة آلاف سنة وكانت أول كارثة فى تاريخ البشرية .

ايريس حبيب المصرى

في الحياة والعمل

بقلم سلامه موسى



حرية المرأة

خطة الاكتفاء الوطني الاقتصادي

تقييد الاعمال الحرة

الكساد العام يتفاقم

تصميم كتاب يجب أن يؤلف هذه الايام

حرية المرأة

فى هذا الشهر — ا كتوبر — احتفلت كلية أوبرلين فى الولايات المتحدة بمرور مائة سنة على تعليم الفتيات . ففى سنة ١٨٣٧ دخلت هذه الكلية أربع فتيات وشرعن فى تلقى المحاضرات على قدم المساواة مع الشبان . وكان المألوف من قبل أن تتعلم الفتيات موادخاصة كان يزعم المربون أنها تليق للنساء

ومن هذا الخبر نفهم أن حرية المرأة حديثة حتى فى أوربا وأمريكا . فان التفريق بين الجنسين فى التعليم — وهو أعظم مايدل على اختلاف النظر بين القادة والساسة بشأن المرأة والرجل — كان إلى وقت قريب عاما . بل هذه الحرية نفسها ليست قائمة على أسس ثابتة كما رأينا من دعاوى الفاشيين فى ايطاليا أو الاشتراكيين الوطنيين فى ألمانيا . وصحيح أن هذه الدعاوى لم تجد الاستجابة العملية بين الألمان أو الايطاليين الذين يعلمون فتياتهم التعليم الجامعى ويفتحون لهن أبواب الارتزاق فى جميع الأعمال الحرة . ولكن هذه الدعاوى تدل على أن النظر الشرقى للمرأة لاتزال فيه بقية من الحياة — ولو كانت حياة ضعيفة — فى أوربا

وهذا النظر الشرقى لايزال مخيما علينا فى مصر . وهو ليس خطراً على حرية المرأة وحدها بل على حرية الرجل . على حريتنا جميعاً . لأن أعظم تقاليد هذا الشرق هو حكم الفرد أى الحكم الاستبدادى واستعباد المرأة . فالشرق لم يعرف فى تاريخه قط الحكم البرلمانى والنظام الديمقراطى كما أنه لم يعرف حرية المرأة . بل أن بعض الأقطار الشرقية حتى عند ماتأخذ بأساليب الحضارة الحديثة الأوربية مثل اليابان تستبقى من شرقيتها استعباد المرأة . وكلنا يعرف أن الاب الذى يستخدم أحدث الآلات فى مصنعه يتجر بعرض ابنته ويبيعها للبغاء . وهذا بالطبع يرجع إلى هوان المرأة عند اليابانيين الشرقيين

وليس بعيداً أن نفقد نحن الرجال حريتنا اذا ساد الأمة هذا النظر الشرقى . ففى مدة المرحوم

الملك فؤاد رأينا محاولات متكررة لهدم النظام البرلمانى رغبة فى الاستئثار بالحكم. وليس بعيداً أن نرى هـذه المحاولات تتجدد، كما رأينا أيضاً محاولات لهدم حرية المرأة أو تقييدها بدأت قبل سنتين أو ثلاث بالفصل فى شواطىء الاستحمام بين الجنسين وانتهت بالمطالبة بالفصل بينهما فى كليات الجامعة. وهذه الحرية التى نلناها نحن الرجال والنساء لايمكن أن تصونها الا اذا سهرنا عليها فى يقظة وانتباه. وأحسن الوسائل لصيانتها أن ندأب فى المطالبة بزيادتها فاننا كسبنا تعليم المرأة فلنحاول أن نكسب زيادة حقوقها الاقتصادية بأن نطالب الحكومة بفتح أبواب العمل لها على قدم المساواة مع الشاب.

وكذلك يجب أن نحثها على الاقبال على العمل الحر لكى تتكسب. وعندما نقول أننا نريد من المرأة أن تتعلم وتتكسب لانعنى أنها يجب أن تؤثر العزوبة على الزواج. فان الشاب يتكسب ويتزوج وكذلك الفتاة قد تتكسب ثم تتزوج. وهى بعد الزواج قد تستمر فى التكسب او قد تجد من مشاغل البيت ماهو أهم وأدعى لاستئثار نشاطها

ولكن الفتاة يجب أن تتعلم لكى تعمل عملا مجديا للامة ولنفسها. وذلك لكى تتكون شخصيتها الانسانية التى يجب أن تكون أهم من كل شىء عندها. ونحن الرجال لاتتكون لنا الشخصية الا بمقدار ونوع العمل الذى نعمله وبمقدار اختلاطنا بالناس واصطدامنا بالحياة أفراحها وأتراحها. ولو كنا نعيش بالبيت بلا عمل لركدت أجسامنا وعقولنا ركود الترهل والموت الذى نراه فى بعض النساء السمينات اللآتى لايستطعن الحديث الا عن القيل والقال. وقبل أيام رأيت مجلة أنشأتها سيدة مربية فوقع نظرى فيها على اعلان للمفتقة والحلبة وسائر العقاقير المسمنة

فهذا هو النظر الشرقى الذى انحدر الينا بالتقاليد والذى كاد يصبح جزءا من مزاجنا القومى وهو مزاج يجب أن نكافحه فى أنفسنا وفى غيرنا. فلا نكف عن تثقيف المرأة جسمها وعقلها ولا نكف عن تعليمها على قدم المساواة بالرجل كما يجب أن نعلمها حرفة تعيش منها لكى تتكون شخصيتها الانسانية

وأخيرا أقول للشاب أنه يجب عليه أن يساعد زوجته على أن تكون ذات شخصية انسانية جليلة. وذلك بأن يشركها فى جميع علاقاته الاقتصادية والاجتماعية وأن يكلفها التكاليف التى تشعرها بالواجبات والمسئوليات المختلفة حتى تنمو معه نموا ذهنياً واخلاقيا واجتماعيا. ويجب أن نصرح بان الواجبات المنزلية لاتكفى لهذا النمو

خطة الاكتفاء الوطنى الاقتصادى

فى تلغراف من رومه ان السنيور موسلينى قد افتتح السنة الثانية من خطة «الاكتفاء بالنفس» فألق خطبة قال فيها انه يجب أن تصبح ايطاليا وحدة اقتصادية تكفى نفسها . وفى الاجتماعات التى عقدها قرر مقدار الطعام الذى ينبغى لايطاليا أن تستورده من الخارج

وفى تلغراف آخر من رومه ان الدوائر الاقتصادية قد ارتاحت لمحصول القطن فى ايطاليا الذى لايقل جودة عن أصناف القطن الاجنبية خصوصاً نوع « السكلاريدى » وقد اتبعت نظاما جديداً لتنمية هذه الزراعة وابلاغ المساحة المزروعة قطنا الى مائة الف وخمسين الف هكتار بمتوسط ثلاثة قناطير ونصف قنطار للهكتار الواحد . وسيكون فى استطاعة ايطاليا انتاج ٤٥٠ ألف قنطار قطن سنويا والاستغناء قريبا عما تستهلكه من الخارج

ولهذين الخبرين تأثيرهما الكبير فى محصولاتنا . ولكن يجب أن يكون لهما أيضا المغزى المفيد فى توجيه خططنا الاقتصادية . فان « الاكتفاء الوطنى الاقتصادى » وما يسميه الاوربيون « الاوتارخية » هو خطة قد اتبعها معظم الامم . وكانت المانيا صاحبة الدعوة الكبرى فيها إذ هى التى دعت المصانع الى الاستغناء عن المواد الخامة الاجنبية باستعمال كل ما يمكن استعماله من المواد التى تنتجها الارض الالمانية

وعلى هذا المبدأ صار البترول يصنع من الفحم الألمانى . وصار الكئول المستخرج من المصانع الألمانية يستخدم وقوداً للاتومبيلات . وصار الكوتشوك الكيماوى يأخذ مكان الكوتشوك الطبيعى المستورد من جاوة وسومطرة . وكثرت مصانع الريون والصوف الكيماويين للاستغناء بهما عن واردات القطن والصوف والحرير . بل المعادن نفسها قد صار الألمان يمزجون بينها لايجاد المتانة المطلوبة حتى يستغنوا عن واردات المعادن الأجنبية . وأدعى الى الاعجاب وان لم تكن له القيمة الاقتصادية الكبرى التى لغيره هو استخراج السكر من الخشب

وعجيب حقاً أن يعمد هذا الشعب الألماني الى استغلال ضائقته وعجزه عن شراء المحصولات الأجنبية فيخترع المواد التي تغنيه عنها ويستخدم ذكاء أبنائه ومهارة علمائه في هذا السبيل وكذلك فعل الايطاليون وان لم يذهبوا الى المدى الذي بلغته ألمانيا . وهذان الخبران اللذان نقلناهما في أول هذا المقال يدلان على أن ايطاليا دائبة في خطة الاستغناء عن الواردات الأجنبية وعلى أنها تنوى الاحتفاظ بالنقد الايطالي حتى لايذهب الى الأقطار الأجنبية ثمناً للبضائع الأجنبية . وايطاليا لاتزرع القطن فقط بل هي أيضا تؤسس مصانع الريون أي القماش الكيماوي ولها أكبر عدد من هذه المصانع بعد المانيا

وما أحرانا بأن نفتح أعيننا لهذه الظاهرة الاقتصادية . فان مما لاشك فيه أن كثيراً من الاقطار الكبرى ستتجه هذا الاتجاه وستبذل أقصى جهودها للاستغناء عن المحصولات الاجنبية امابإستنتاج هذه المحصولات نفسها في ارضها . كما فعلت روسيا وايطاليا وتركيا واليونان وبرازيل بزرع القطن واما بالاستغناء عنه باقامة المصانع الكبرى لايجاد الريون وما اليه من الأقمشة الكيماوية . وعلى هذا يجب أن ننتظر التقهقر المتوالي لمحصول القطن المصري . ويجب أن نقاوم هذه الظاهرة بانشاء مصانع الغزل والنسيج في بلادنا لكي نستهلك منه أقصى ما يمكننا . وفي الوقت نفسه يجب على الحكومة والأمة أن تسعيا لتحقيق ما يمكن تحقيقه من خطة «الاكتفاء الوطني الاقتصادي» ونحن لانجهل أننا مهما جهدنا فاننا لن نبلغ شيئاً عظيما في الوقت القريب . ولكن ماذا يمنعنا مثلا من فرض المكوس العالية بل المكوس المانعة على جميع الأطعمة الطازجة أو المخزونة حتى يضطر المستهلكون أجانب ووطنيين إلى استهلاك الأطعمة المصرية . ويدخل في لفظة «الاطعمة» جميع واردات الدقيق ومشتقات اللبن وجميع الفواكه والبقول واللحوم . فان علبة السردين تباع الآن في مصر بقرش واحد .

ولسنا ندرى أية مصلحة نجنيها من هذا التسامح . والراغب في السردين الأجنبي يمكنه اذا اشتهاه أن يؤدي في ثمن العلبة خمسة قروش . وكذلك الشأن في سائر الأطعمة الأجنبية . ولكن المكوس وحدها لاتكفي فيجب أن ننشط الى تأسيس المصانع المصرية التي تستهلك محصولاتنا بل

نحن لا نرى ما يمنع الحكومة من أن تقوم بنفسها بتأسيس المصانع أو القليل منها الذى لا يمكن الأمة فى وجدانها الاقتصادى الحاضر أن تدرك قيمته وتتطوع لتأسيس الشركات له

وقد قمنا قبل نحو سبع سنوات بحركة المصرى للمصرى لهذا الغرض ودعونا الى الوطنية الاقتصادية . ونحن فى حاجة الى تجديد هذه الدعوة حتى تشعر الأمة بضرورة الاستقلال الاقتصادى الذى لا تتوانى الامم القوية مثل ألمانيا أو إيطاليا عن الدعوة اليه والعمل لتحقيقه مع التضحيات الكبيرة التى يحتاج اليها هذا التحقيق

تقييد الاعمال الحرة

اذا كانت الرغبة التى أبدتها لجنة الصحافة فى انقاص صفحات الجرائد ستؤدى الى بعض المناقشات الاقتصادية فان الفائدة للقراء ستكون كبيرة . فان الاهرام قد اتخذت موقفا مناقضا للموقف الذى اتخذته سائر الجرائد المصرية ودعت الى الحرية المطلقة للعمل الحر واستندت الى نظريات يحسب كاتبها أنها على شىء من القيمة

ونظن أن فى عصرنا الحاضر يجب على كل كاتب يتصدى لبحث المسائل السياسية والاجتماعية أن يكون واقفا على النظريات الاقتصادية التى هى الاساس لكل تطور سياسى أو اجتماعى . فان لفظة « الحرية » محببة إلى النفس وهى تستهوى الاذن والقلب . فاذا دعا داع الى صيانة الحرية ومنع التقييد بين المشتغلين بالاعمال الحرة توهم السامع أن المقصود هو خدمتهم . وان تدخل الحكومة يراد منه الاضرار بهم أو هو سيضرهم حتى ولو لم تكن هناك الارادة لذلك

ولكن الواقع ان حرية المزاحمة ليست على الدوام حسنة للمتزاحمين أنفسهم أو للجمهور فان المفروض منطقا أنه كلما كثر المتزاحمون انتفع الجمهور بانخفاض الثمن . وهذا صحيح ما دام هؤلاء المتزاحمون صغاراً . وقد كانت هذه هى الحال السائدة قبل القرن التاسع عشر . فان صناعة

الاحذية مثلا كانت فى أيدى صغار الصانعين الذين كان كل منهم مالكا وأجيرا فى وقت واحد . يملك دكانه ويعمل بنفسه فلم يكن هناك مكان للاحتكار مهما كانت هذه الصناعة مطلقة حرة . ولكن بعد ذلك ظهرت الماكينات التى تصنع مئات بل ألوف الاحذية فى اليوم فمحت بالاحتكار من أمامها المالك الصغير . فيجب عندما نتغنى بحرية المزاحمة واطلاق الاعمال الحرة ألا ننسى أن الاحتكار يهدم هذه الحرية . والجمهور لا يربح شيئا . فان المحتكر صاحب الآلات الضخمة يبيع سلعته فى أول الأمر رخيصة حتى يقتل مزاحمه الصغير الذى يعمل بيديه . فاذا انتهى منه زاد أثمان سلعته كما يشاء لانه لايخشى المزاحمة

وقد أصبح التدخل اى تدخل الحكومات فى الاعمال الحرة عاما . ونحن نعرف هنا فى مصر أن المزارع المصرى لا يمكنه أن يقول أنه حر فى زراعة ارضه كما يشاء . فان الحكومة تتدخل وتفرض عليه ألا يزرع سلالة معينة من القطن . وهى تحدد مقدار الرز الذى سيزرع فى منطقة خاصة وهى تتدخل فى حقل القطن الموبوء بالديدان وتعين الفعلة لتنقيتها . وهى تمنعه من رى أرضه الا فى مواعيد . وهكذا . وهكذا

فالتدخل فى الاعمال الحرة مسلم به . والحكومة فى تدخلها فى مسألة الجرائد انما تحاول منع الاحتكار . ومن منا ينكر أن هذا الاحتكار واضح وانه لم يقم على أسس تتفق وشرف الصحافة ؟

ان بيننا صحفيين لا يتورعون عن التحدث بأن الاحزاب السياسية فى مصر يتزعمها زعماء تجوز عليهم الحيل وأنهم ينتفعون بالوثبات السياسية ولا ينكرون أن هذا الصحفى قد نال فى يوم من رئيس وزارة سابقة خمسة آلاف جنيه لكى يدعو له ويخدمه فى شتم الوفديين . وأن هذا الاخير كيت وكيت . بل سمعنا من صحفيين فى سنه ١٩٢٧ و ١٩٢٨ أن الدستور ليس الا لعبة وأن النية معقودة على حكم البلاد بدونه . ورأينا جرائد هؤلاء الصحفيين ومجلاتهم سريعة الى تلبية دعاة الديكتاتورية وملء أيديهم من أموال الدولة

واستطاع هؤلاء الصحفيون أن يصلوا الى القمة ، وان يجعلوا جرائدهم ومجلاتهم تستغرق

السوق فلا يباع الى جنبها جريدة أو مجلة . بل رأينـا بعض هؤلاء يستولون على الاعـلانات أيضاً ويحتكرون الجرائد والمجلات بيعاً واعلانات

لقد كانت تجارة البترول حرة فى الولايات المتحدة فانتهت هذه الحرية الى أن يحتكرها روكفيلر اذ استولى على معظم المنابع وصار يحارب جميع مزاحميه حتى قتلهم وعندئذ تصدى له الرئيس روزفيلت وحارب احتكاره

ومن العبث ان يحيلنا كاتب على نظريات القرن الثامن عشر أو التاسع عشر . فاننا لا يمكننا أن نعمى عن الواقع سنة ١٩٣٧ فان ألمانيا تتدخل فى الاعمال الحرة وتفرض حداً اعلى للمرتبات فى هذه الاعمال لا يزيد على ٧٥٠ جنيها فى السنة . وإيطـاليا تفرض عضوية موظف من الحكومة فى مجلس ادارة الشركات والامم التى أخـذت بنظـام الحصص تمنع المستوردين من شراء البضـائع الاجنبية الا بمقدار معين . وبعض الامم تمنع خروج النقد . فالرجل الثرى الذى يملك مئات الالوف من الجنيهات وهى التى جمعها بعرق جبينه واعتصار ذهنه لا يمكنه أن يأخذ سوى مقدار صغير جداً منها اذا أراد ترك بلاده للسياحة أو التنزه . وبعض التجـار اليونان فى مصر لا يمكنهم الآن ان يستعيدوا أموالهم التى لهم فى اليونان

ونستطيع ان نزيد الامثلة . ولـكن خلاصة ما يقال ان الصحافة قد اصبحت احتكاراً لواحد او اثنين . وليس هذا من مصلحة الامة . والحكومة تحسن اذا حاربت هذا الاحتكار بانقاص صفحات الجرائد الى ثمان

الـكساد العام يتفاقم

ذكرت احـدى الجرائد أن فى المحكمة المختلطة نحو سبعين قضية افلاس ، وذكرت جريدة أخرى أنه قد أغلق فى الاسبوع الماضى خمسة مصانع مصرية . واحد منها للمسامير . وآخر لأوكسيد الزنك . وثالث للمنسوجات الحريرية . واثنان للازرار

وهذان الخبران يجب أن يبعثا القلق العظيم فى نفوسنا . فانهما يدلان على أن موجة الكساد التى كانت قد انحسرت بعض الشىء منذ سنة ١٩٣٠ قد عادت وربما كانت عودتها أشد وأفظع مما كانت فى تلك السنة . وقد عللت احدى الجرائد اقفال هذه المصانع التى ذكرناها بأن الواردات الأجنبية لاتجد من المكوس الجركية العالية ماينقص مقدارها وانها لذلك تغمرنا فلا يمكن مصانعنا المبتدئة أن تزاحمها . وبدهى أن المصانع الأوربية قد حصلت من الاختبار والدراية مالا ينتظر أن يحصل عليه مصنع مصرى مبتدىء . ولذلك تحتاج مصانعنا الى الحماية والرعاية الى أن تثبت وتستطيع الوقوف فى وجه المزاحمة الأجنبية

وقد سبق أن أشرنا إلى أن أمماً كثيرة أخذت هذه الأيام بمبدأ الاستقلال الاقتصادى وانها لهذا السبب تستنبط من أرضها المواد الخامة والمحصولات التى تحتاج اليها . كما انها بنظام الحصص فى الواردات قد منعت التجار من شراء البضائع الأجنبية إلا بمقادير معينة لاتؤذى الصناعات الوطنية . واحتفظت بنقدها وصارت تمنع أبناءها من اخراجه . وهلم جرا

ونحن فى بداية نهضتنا الصناعية نحتاج إلى أن تحمى الحكومة صناعاتنا بفرض مكوس جمركية عالية على الوردات الأجنبية . بل الزراعة نفسها فى حاجة إلى هذه الحماية . فان مما يدعو إلى العجب أن تمتلىء دكاكين البقالين بالمأكولات الاجنبية فى حين أن مصر قطر زراعى أقل مايطلب منه أن يكفى نفسه بالأطعمة . ولسنا نعنى المنع التام وانما يجب أن نشجع الفلاح على صنع الجبن الجيد بأن نجعل ثمن الأقة من الجبن الأجنبي نصف جنيه مثلا

وهكذا الشأن فى سائر مصانعنا . فان الحكومة التى تفكر فى إنشاء البنوك الصناعية يمكنها أن تستغنى عن كل ذلك لو أنها زادت المكوس الجمركية على جميع الواردات التى نصنع مايماثلها أو حتى يقوم مقاومها ولو لم يكن من جنسها

ولكن زيادة المكوس الجمركية لايمكن ان تكون ترياقا لجميع أدوائنا الاقتصادية فان ثمن القطن لن يزيد مليما مهما زدنا نحن فى مقدار هذه المكوس . والريف المصرى يعانى هذه الأيام نكبات متواليات من انخفاض الاثمان وانخفاض المحصولات معاً . والاول يسيطر عليه عوامل عالمية . والثانى قد وصلنا اليه بطيشنا وقلة تبصرنا حين غمرنا أرضنا بالمياه حتى مرضت التربة وحتى،

نزل محصول الفدان من ١٢ قنطاراً إلى ثلاثة قناطير . ولو لم نكن قد رأينا هذا الانحدار بأعيننا لما صدقناه . وهذا إلى التقهقر العام الذى يجده القطن فى أسواق العالم . وإلى أن المزارعين على الرغم من تخفيف ديونهم لايزالون ينوءون بها

فماذا نفعل من أجل هذا الريف الذى يخيم عليه الضيق وكيف ننقذه ؟

ان العلاج الحاسم لهذه الحال يحتاج إلى جهود كبيرة جداً تحتاج الى السنين فى اصلاح التربة أى تجفيفها وفى تعليم الفلاحين العناية بمحصولات أخرى غير القطن وفى تشجيعهم على ايجاد هذه المحصولات — وأخصها مشتقات اللبن والفراخ والبيض والفواكه والخضراوات — بايجاد الأثمان الحسنة المغرية لها . وعندنا أن الطريقة المثلى التى يمكن أن نلجأ اليها من الآن لتحقيق بعض ذلك انما تكون بخفض النقد أو مايسمى التضخم

وقد كنا من دعاة هذا الخفض منذ سنة ١٩٣٢ حين انخفض نقدنا بانخفاض الجنيه الاسترلينى ودافعنا عن هذا الانخفاض وأوضحنا فائدته للمحصولات المصرية . وفى العام الماضى قبل نحو ١٥ شهراً كتبنا ندعو هذه الدعوة . والآن نعود اليها ونحض الحكومة على اتباعها . ونحن نقول هذا بعد ماقرأنا عن تصميم الحكومة على المحافظة على السعر الحاضر للنقد المصرى . ولكننا نعتقد أن الحكومة لم تكن موفقة فى هذا التصريح . ولسنا نتعامى عن موقفنا الحاضر إزاء المعاهدة والوساوس التى قد تخامر بعض الأجانب وحرص الحكومة على بث الطأنينة المالية . ولكن كل هذا لايساوى الفوائد العظيمة التى تعود على أبناء الريف مزارعين مالكين وفلاحين مأجورين وهم لايقلون عن ١٢ مليوناً من خفض النقد الذى يخفف أعباء الديون عنهم وينشطهم الى العمل المثمر فى حقولهم التى غشى عليها الخمول والركود لليأس الذى استولى على المنتجين

ولاعبرة بما يقال من أننا نستهلك منتجات أجنبية وأن أثمانها سترتفع فنعجز عن شرائها عندما تنخفض قيمة النقد . فان هذا القول نفسه يمكن أن يحتج به لفائدة الخفض . ذلك لأننا عندما نجد المنتجات الأجنبية غالية فاننا سوف نجرؤ على تأسيس المصانع المصرية ونشترى مصنوعاتها كما نقتصر على استهلاك محصولاتنا فيكون من هذا وذاك تشجيع للزراعة وللصناعة المصريتين

ويمكن الحكومة أن تؤلف لجنة من الماليين والاقتصاديين أجانب ومصريين لكى تبحث اراءهم قبل الشروع فى هذا الخفض

تصميم كتاب يجب ان يؤلف هذه الايام

تدل حركات بعض الطلبة هذه الاشهر القريبة الماضية على انهم لصغر سنهم لم يعرفوا الحقائق المرة التى يجب أن تعرف

ولهذا نعتقد أنه من الحسن أن يؤلف كتاب فى تاريخ وزارة اسماعيل صدقى باشا . ولا تذكر فى هذا الكتاب أراء بل لاتورد فيه كلمة تشنيع لأن الحقائق نفسها بليغة تصرح بالعار والشنار

وهاك تصميما أو ترسيما لكتاب يؤلف تحت عنوان «وزارة اسماعيل صدقى باشا وأعمالها فى أربع سنوات » ويطبع مزوداً بالصور صور القتلى والجرحى من المصريين الصميمين . ويجب ألا يقل عدد الصور عن ثلاثين أو أربعين لأن الجمهور يحب رؤية الصور فيقبل على قراءة الكتاب . والصورة الافتتاحية هى بأطبع صورة اسماعيل صدقى باشا . ثم تتلوها صورة مرسى عبد الجواد وهو الشرطى الذى حكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة لأنه قتل فى سنة ١٩٣٠ أحد الشبان المصريين الذين رفضوا الذهاب معه إلى مكتب الانتخابات لانتخاب المرشح للبرلمان الصدقى . ثم صورة هذا الشاب المقتول . وبعد ذلك ننقل عشرات الصور التى تمثل شبابنا المقتول والمجروح لكى يتمتع من يدعى اسماعيل صدقى باشا برئاسة الوزارة

هذا عن الصور . وقد تبدو هنا صعوبة وهى أن الجرائد والمجلات المصورة لم تكن تنقل هذه الصور لأنها كانت فى صف صدقى باشا أو كانت تداريه بالسكوت لأنه كان يداريها بشىء آخر . ولكن فى كثير من المجلات الانجليزية وعند كثير من الوطنيين مئات الصور التى تصف تلك السنوات السود الوصف الذى تستحقه

ثم نبدأ الفصل الأول فنجعله خلاصة لتاريخ صدقى باشا قبل وزارته . أى كيف نشأ وفى أى أسرة

وكيف كان جده تركياً لايعرف العربية . وهنا قد تكون لنا ملاحظات سيكلوجية مفيدة - ثم نذكر انضمامه لوزارة زيور باشا التى جمعت البرلمان فى الصباح ثم حلته وطردت الاعضاء فى المساء لأنهم كانوا فى نظرها جماعة فلاحين

ثم بعد ذلك نعقد فصلاعن دستور سنة ١٩٢٣ ولماذا كان يكرهه المستبدون - والدستور الذى باضه وفقسه اسماعيل صدقى باشا ولماذا أحبه المستبدون - والمقابلة بين الدستوريين تنير كل مصرى عن المرامى التى كان يرمى اليها أمثال اسماعيل صدقى باشا وزيور باشا

ثم يأتى فصل ممتع فى هذا الكتاب - وهو فصل الانتخابات - ويجب أن أكرر هنا ضرورة الاحجام عن كلمة شتم أو تقبيح لصدقى باشا لأن الحقائق لاتشتمه بل تصفعه

ففى هذا الفصل نصف الحوادث وكيف سارت إلى أن انتهت بنجاح صدقى باشا حتى حصل على ٦٧ وسبعة أثمان فى المائة من الأصوات

وهنا لا بد من ذكر الاحصاءات الدقيقة عن القتلى والجرحى فى أنحاء القطر قبل تحقيق هذا النجاح المئوى المرتفع - ولعل من اللائق أن نقرر فى هذا الفصل الفشل الذى أصيب به صدقى باشا فى دائرة بورسعيد التى لم تزد فيها النسبة على خمسة فى المائة إذ كان المحافظ فى ذلك الوقت رجل يدعى حسن رفعت بك رفض الاستخذاء لرئيس الوزارة وأصر على أن يكون نزيها وعلى أن يترك الحرية للناخبين

ثم فصل ممتع آخر — عن مرسى عبد الجواد الذى سبق ان قلنا ان صورته يجب ان تنشر مع صورة الشاب الذى قتله فى حلوان سنة ١٩٣١ لأنه رفض انتخاب المرشح الصدقى . وهذا الفصل يحسن أن يكتب على هيئة بلاغ يقدم للنيابة العمومية . نذكر فيه بايجاز قصة الانتخابات والجو الاحمر جو الدم والسيف والنار الذى أشاعه اسماعيل صدقى فى البلاد حتى ظن هذا الشرطى أن كل جريمة تجوز فى سبيل تحقيق الغرض الاسمى وهو بلوغ ٦٧ و سبع اثمان فى المائة من الأصوات . فنذكر هنا أن اسماعيل صدقى يقع عليه جزء من المسؤولية فى هذه الجريمة وأننا نطالب النائب العمومى بالتحقيق لكى يعين مقدار اشتراكه فيها . وقد يرى بعضنا أنه برئ ويرى بعضنا أنه مجرم - فالنيابة العمومية هى الهيئة الوحيدة التى يمكنها أن تعين مسئوليته فى هذه الجناية

التى انتهت بقتل شاب مصرى وبالحكم على شرطى بالسجن خمس عشرة سنة

والى هنا لايحتاج المؤلف إلى كتابة سطر واحد لايلتذه القارئ - فان كل حادثة درامة يبدو لنا فيها صدقى باشا كأنه بطل يرقص على المسرح - ولكن يجب فى كتاب كهذا ألا تكون غايتنا اللذة - بل يجب أن نضع الفائدة فوقها - فنأتى على الاستثناءات فى العلاوات والترقيات - وقد بلغت ١٢٥٠ ومن هم الذين حصلوا عليها فى الوقت الذى ضرب فيه الموظفون بضريبة الدمغة - وأى شركان ينويه بهذه الاستثناءات الكثيرة ؟

وهنا لا بأس من أن نخالف قاعدتنا وهى الاقتصار على الحقائق ونساهم بقليل من الآراء لكى نستكنه نفسه ونياته - وربما يكره بعض القراء هذه المخالفة ويلح على وجوب الاقتصار على الحقائق فى هذا الكتاب - فاذا نزلنا على رأى هذا الفريق الحنبلى فاننا يجب أن نسلم باننا نضحى بقسم لذيذ من الكتاب

ثم ننشر فصولا متوالية - كلها حقائق - عن الصحافة فى أيامه السود - وعن الفلاحين والضرائب - وعن توازن الميزانية - وعن السخرة - وعن التسوية مع البنوك العقارية لفائدة المدينين أوالدائنين - وعن سلطة مجلس الوزراء الذى هو برلماننا الصغير منذ أيام الخديو اسماعيل - وعن الخ

ومثل هذا التصميم يقبل التنقيح هنا وهناك - ولكن هذه صورة عامة قد تناولنافيها العظام العارية لهذا الموضوع الخطير - وكل مانحتاج اليه همة بعض المؤرخين لاتمامه واخراجه كتابا سويا يقرأه الطلبة فيعرفون من هو اسماعيل صدقى باشا